حُبٌّ..
دون دراسة جدوى

أحمد عمر حب دون دراسة جدوى ، رواية

رقم الإيداع : ٢٠١٨/٣٣٥٧ ISBN : 978-977-798-115-6

إن دار الحلم للنشر والتوزيع غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره ، وتعبر الآراء الواردة في هذا الكتاب عن آراء المؤلف ، ولا تعبر بالضرورة عن آراء الدار .

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للدار

ولا يجوز طبع أوإعادة استخدام أي جزء من العمل في أي صورة كانت إلا بموجب موافقة خطية من الناشر .

© دار الحلم للنشر والتوزيع

عضواتحاد الناشرين المصريين

القاهرة جمهورية مصر العربية

Mob : 00201141824562

dar_el7elm@hotmail.com

info.darel7elm@Gmail.com

حُبٌّ..
دون دراسة جدوى

رواية

أحمد عمر

إهداء ...

إلى من لم تستطع السياسة اغتيال محبتهم .

إلى غريبة تاهت معى فى قطار ذات يوم .

إليك يا حبيبتى ... إليك فى منفاك ...

حب دون دراسة جدوى هو جسد جديد

للرواية لعله يكون أكثر تصالحًا مع الروح ...

الفصل الأول

ابتهالات الذاكرة

هل أستطيع أن أكتب بالأسود فوق الأسود !
هل يجوز أن أقدم حزنى على حزن الوطن !
ربما الوطن أكبر مذنب فى حقنا ؛
فهو الذى علمنا العشق الذى يقتلنا ألف مرة
ونزداد مع كل موت عشقًا،
وهو الذى علمنا كيف نحتضن النار بلهفة !
إنه متورط دوماً فى إشعال ذاكرتنا ، وعليه أن يستمع ...

إن امرأة أحببتها فى محطة قطار ..

هى امرأة لا يمكن لك أن تنساها ؛

هى امرأة .. بطعم الرحيل والعودة ، بطعم لقاءالأهل

والغربـة ، بطعـم الحنـين واللهفـة ، بلـون الحقيبـة التـى لم تتغـير

لكنهـا ترحـل ضجـرًا وتعـود فرحًـا ..

تلقى بك وسط الزحام ولا ترحم عجزك ،

أو تحجز لك مقعدًا بجوارالنافذة لتعبث بذاكرتك ..

وتتركك فى مهب الحنين ...

القطار حياة أخرى ليست كأى حياة ..

وهى تأخذ شكل الحياة :

تحمل مع الباعة الجائلين بضاعتهم ،

وتزيل عنهم كل الشبهات التى علقت فى رقابهم ؛

منذ درسنا فى اللغة أن بضاعتهم رديئة تدمر الصحة ،

ومنـذ أخبرتنـا جدتنـا أنهـم يخطفـون الأطفـال كى لا نلعـب فى الشـارع ،

ومنـذ قالـت الحكومـة أنهـم خطـر عـلى الاقتصـاد وعلينـا أن نحاربهـم بـكل مـا أوتينـا مـن قـوة .

ترسم وجوه الموظفين فى أجهزة الدولة ..
والعاملين باليومية فى الزراعة والحصاد والهدم والبناء ،
ومـن يخـرج مـن بيتـه كل يـوم وعـلى وجهـه ورق اليانصيـب
مطبـوع عليـه قائمـة عريضـة مـن الالتزامـات ..
ولا يعرف إن كان سيجد عملاً ،
أو سيعود فارغا اليدين مملوءًابالهم ؛
فتطلب من محصل التذاكر ألا يطالبه بثمن التذكرة ،
وتطلـب مـن الـركاب أن يغضـوا الطـرف عنـه إذًا هـرب مـن
المحصـل .

كيف أهرب منها ؟!

وهـى فى ملامـح عاشـق صغـير يذهـب قبـل انطـلاق القطـار بعـدة سـاعات كى يحجـز لحبيبتـه مقعـدًا قبـل الزحـام ، يحرسه ويقاتل طويلاً من أجله حتى تأتى ،

ثـم يحلمـون بسـيارة خاصـة ذات زجـاج أسـود تحميهـم مـن نظـرات النـاس ليقبـض عـلى يدهـا ..

وهما يستمعان إلى أغنيتهما المفضلة .

وكيف لا يعتصر قلبى ..

حـين أراهـا فى وجـوه الرجـال الذيـن يرتـادون القطـار فى منتصـف

الليـل وقبـل انطلاقـه بعـدة سـاعات بحجـة الزحـام !

والحقيقة أنهم هربوا ...

من فراغ البيت وجفاء السرير ؛

فيكملون الليل فى قطار أصبح ملاذًا لهم .!

تبنى حصنًا لفتاة ..

ستدخل القطار فى محطة قادمة - وهى تضم الكتاب إلى صدرها - باحثة عن مكان فى قطار ليس به موضع نفس ، طالبة سلعة تسمى المروءة ،

فتنادى عليها لتقف بجوارها وتقاسمها مقعدها .

تكون بنتًا لعجوز ..

جاءت تسأل رغيف خبز لأولادها

فتجود عليها بمالها ودموعها ...

وإن رماها الناس بالنصب والاحتيال ،

تأمرهم بأن يديروا فراستهم إلى أولئك الذين يستخفون ..

بعقولنا ولا نزال نقدسهم !

تكون أمًّا لطفلة ..

شردتها الشوارع وانتهكت طفولتها واغتصبت براءتها؛

فتغسل لها شعرها الذى لم يتبلل يومًا سوى بماء الأمطار والعرق ،

وتحمل عنها طفلها !

ولا تنهرها ، ولا تسألها من أى خراب أبوه !

تقبلها قائلة :

سلام عليك إلى أن نستعيد انسانيتنا .

يأتى الصيف

فتود لو أُفرغت العربات المكيفة

التى يرتادها أصحاب البدلات الأنيقة من كراسيها ...

فتفرشها حصيرًا ليجلس الطلاب والفلاحون

وبائعـات الجـبن والخضـار الذيـن كـوت الشـمس وجوههـم ؛

ليشـعروا ولـو لمـرة بـأن أكرمنـا عنـد الوطـن أشـقانا .

تشرب حد الارتواء ..

من بائعين المياه الباردة دون اشمئزاز ...

فكفاحهم يزيل الشوائب من المياه ويجعلها كأنها

ما مرت يومًا على غرف التنقية ؛

فاغتسلت بالكلور حتى ضاع طعمها !

ولا اختلطت بماء الصرف والقمامة !

تمطر الدنيا ورعًا ..

عندما تبتاع بكل ما تبقى معها كتيبات رسائل الحب ،

وأغانى الزمن الجميل ..

بعد أن رفضها جل من فى القطار ، وتقول له :

كتيباتك يا سيدى على بساطتها عظيمة ...

أعظم من ببغاوات يحترفون فن الطبلة ،

لأى نظام هم ينافقون ليل نهار ،

يكتبون كتبًا رديئة ، ويظهرون كل يوم على شاشة التلفاز

مثل القرود .

تجلس فى شباكى لتأخذ كبرياء الأشجار ، وحنين النخيل ، وسفر البحار ، ولعب الأطفال ، وحزن النيل ، وأسرار البيوت المرسومة على الجدران المنشورة فى الشرفات ...

أرى عيناها تلمع تحت الشمس ، وتتحرك مع الغيم ، وتبكى مع السماء .

تؤنس الطرق الغريبة ..

التى أرتادها عندما يقطع المتظاهرون الطريق ..

وتدافـع عنهـم أمـام كبـار السـن الذيـن يتهمونهـم بالهمجيـة ،

وتعلـن انتماءهـا إليهـم ،

وتلعن زمن الصمت بالإكراه وزمن الجهل والكبت والاعتقال

وتلقى إلى المتظاهرين منشورًا سريًا يقول :

احفظوا الحقوق ولا تقطعوا الطريق ...

تحلوا بالثقافة والصبر والصدق ولا تخربوا .

كان عطرها يصنع مع الغيوم أشكالاً شديدة التوافق :

حمامة ، وقمحا ، وسلاما ، وحرية ...

سفينة ، وبحرا ، وشوقا ، وصبرا ...

كان عطرها لوحات إرشاد فى الممرات الضيقة المزدحمة ،

كان يختلق الجمال ،

كان يعطى الأمل لكل الذين يخرجون من بيوتهم

فى اتجاه اللاشىء ...

أسافر ليلاً
فتضيئ عيناها نورًا نقيًا لعربات لا توجد بها
مصابيح ، ويداها دفء لعربات فقدت شبابيكها ؛
فتكون نورًا ودفئًا لأغراب جمعهم القطار ليلاً
فصاروا أحبابًا !
فما أعجب السفر ليلاً ! تتحدث فيه الأرواح ...
فإن غابت الوجوه سيظل الحديث محفورًا فى
القلوب ...

تود لو أنها كانت مهرجة
لتنقذ الناس من غيابات الهم ، ومن سجون
الحاجة ، ومن غصَّات القلب القاتلة ...
ثم تراجع نفسها قائلة :
إلى متى سيكون كل همنا تناول المسكنات !
فتدعوا الله القدير أن يرفع عنا الهم .

كانت تطلب من منظمى الرحلات ألا يتقابل قطاران ،
كى لا يضيع الركاب بين ذاكرتين ...
وتؤيد قول علماء الفيزياء بأنه :
حين يتقابل قطاران يظن الركاب فى كل واحد
من القطارين أن سرعتهم زادت .
وتضيف إلى النظرية : ودقات قلوبهم تزداد .

ما جلستْ فى صالات الانتظار يومًا ،

وإنما كان النداء فى المحطة يقول :

إن القطار الذى أرتاده يتوقف عند محطات جنونها

قبل أن يصل !

ففــى كل المحطــات كنــت ألمحهــا وأهــم أن أنــزل فتختفــى،

ويتحــرك القطــار ...

وعندما أصل إلى المحطة الأخيرة يقول النداء :

إن قطار العودة الذى تحرك لتوه ينتهى عندها !

كانت تضع على مقدمة القطار حمام السلام ؛
ليطير بأرواح الأطفال ، والتائهين ..
الذين أصبحوا من شدة الهم لا يبصرون الطريق
فتذهب بهم إلى السماء قبل أن يدهسهم القطار
فلا يجدوا ألمًا...
وتضع فوق آخر عربة راية بيضاء
لتخبر الذين لا يزالون ينتظرون بأن الراحلين
ما ادخروا جهدًا قبل أن يرحلوا .

كم تمنيت أن أسافر معها فى قطار للبضائع ..
نجلس فى آخر عربة حيث لن يأتى محصل التذاكر ،
وحيث لن تأتى عيون الناس ،
وحيث المقعد لا يسع سوانا ...
فنسافر دونما وجهة ، ونتكلم دونما حرج
وأحتضنها كثيراً .

وحين يمر القطار كعاصفة ..

بين مفارق طرق ليسرق أنظار الكل ،

ويظن الجميع أن القطار هو كل الطريق ..

فإما أن يركبوا أو يكونوا من الهالكين ..

تصرخ فى وجه الجميع توقفوا :

فإن ضيق العيش لا يحلل تكميم الأفواه ،

وإن محاربة الإرهاب لا تعنى حرق الأزهار ،

وإن جمع شمل الإخوة لا يلزمه التنازل عن الأرض .

وحتى بعد أن تركت السفر بالقطار لم أسلم منه ولا منها ...
فأشعر بعظامى تتكسر حين يمر القطار أمامى
فى انتظار الحاجز الحديدى (المزلقان) أن يفتح .
فأتوسل إلى السائرين فى اتجاه مخالف أن يلتزموا بطريقهم
قبل أن ينال القطار منى أكثر .
ليوم الحشر المثل الأعلى :
والقطار حين يمر أنسى من يجلس بجوارى حتى
ولو كانت امرأة جميلة .

فى حضرتها تستعيد

شجرة الصفصاف أنوثتها ولا تعاير بنقص ...

فحين يعاير شباب الثورة بثورة

لم تثمر سوى هلاكهم ، وتعاير شجرة الصفصاف

لأنها لم تنجب !

تكون على الناحية الأخرى : جالسة تحت صفصافة ،

رافعة صور الشهداء ورايتهم .

تكون فى ألف صورة ومشهد

حبيبتى أنت فى ركن ركين بقلبى ...

سوف تسقيكِ نسمات الشوق ...

وتحميكِ الكلمات الصادقة ...

وتغنى لكِ عصافير الحرية ...

هناك كلام فوق الشِّعر وفوق النثر وبجوار الوجع :

كجل أعمال نزار قبانى ..

كخطب الديكتاتور الموزونة لمحمود درويش ..

كعابر سرير لأحلام مستغانمى ..

كقول فاروق جويدة :

(زمان القهر علمنا بأن الحب سلطان بلا أوطان

وأن ممالك العشاق أطلال)

يرقص الكاتب بين قافية الشعر وآلام النثر ..

فيخرج كلام لا يُقرأ بل يُحتضن ...

وهذا يشبه شعور الحب الأول ..

فيوم رسمت الأحلام على لوحتها
وصورتها بعقلك وهى فى بيتك ، واخترت معها
أسماء أولادك ؛ كنت تشبه الثوار وهم يحاربون
من أجل الحب ، ويوم أخلصت لها حبك
كنت تشبههم يقلمون الأشجار وينظفون الطرقات
ويلونون الأرصفة دون أن يبالوا بحبال الصيد
المغزولة حول أحلامهم .
ويبقى الحب الأول وتبقى الثورة طيفًا نقيًا ...

إذًا أخبرى قلبك الذى
دخل عش الزوجية أن يفتح أبوابه للحياة
وأنا سأجمع الجمال الموروث منك فى ناحية
من القلب ، تبقى لكِ إلى الأبد .
سلام عليكِ تعيشين فى منفاكِ – داخل
الوطن –مثالية بنصف قلب ...
وسلام على مصر لا تزال تعطى الخير .

الفصل الثانى

دعينى أتحدى دموع القلب وأجزم أن

هناك ثمة أشياء تستوجب العشق ...

مثل عينيك .

عندما تتآمر الذاكرة عليك ؛ تمطر الدنيا صيفًا تصبح كل الطرقات شبيهة بطريق الوجع الذى تحاول أن تهرب منه ، فتجده كل مرة أمامك .

أنا الذى ما نسيت أعوام الحزن أحتاج عمرًا لأهرب ، وآخر لأحاول العيش كباقى السعداء الذين يحزنون حد البكاء ، ويفرحون حد الضحك ، ويتفاعلون مع التغيرات بكل سهولة .

فى طريقى لمكان جديد أحاول من خلاله إعادة ترتيب أوراقى ، والتصالح مع نفسى بعد عامين من حرب أشبه ما تكون بحرب استنزاف ؛ ولعل نصرًا قريبًا يأتى .

انتهى زمن السفر بالقطار ...

ولم تعد لى صلة به سوى انتظارى خلف الحاجز الحديدى

حتى يمر وحسبت أننى هربت ولكنه حين يمر أمامى يسحبنى خلفه لقصتى الأولى ، لألف حكاية لألف وجع ، يجرجرنى خلف الذكريات ،ويطير بالى خلفه بعدما يغيب عن عينى ولا يضل الطريق إليه ؛ فهويسير على درب الهاربين : يحسبون أنهم يتيهون ولكن الطريق إليهم واضح جداً .

الهدوء يخيم على السيارة ...

فالسائق أربعينى يريد أن يحافظ على بطارية سيارته القديمة فلم يقم بتشغيل المذياع ، والركاب عن بعضهم أغراب فلم يتحدثوا عن مشاكل الجيران ولا عن حفل زفاف قادم ، ولم يبتلنا الله بفضولى يتحدث عن صداقات قديمة ونسب ، وجميعهم يخافون الحديث عن الغلاء ،والضوضاء تنبع من داخلى وتفجر

رأسى .
وفجأة تمطر الدنيا ؛فأسمع رجلًا فى المقعد الذى خلفى يقول :
(ليت الأمطار تغسل القلوب والضمائر وتنقى النفوس) .
تمنيت أن ألتفت إليه لأقول : يا سيدى حظ القلوب من تصادم السحاب برق ورعد . ولكننى آثرت الصمت .
إذًا وصلت ...
أوقفنى رجل الأمن وطلب منى إثبات الشخصية ، بحث عن اسمى فى كشف لديه فوجدنى بين المقبولين للتسجيل بكلية الهندسة . رحب بى ، سألته عن غرفة شؤون الطلاب لم تكن بعيدة عن البوابة أخذت وصلًا من أحدالعاملين ، وذهبت إلى الخِزانة . سددت المصروفات ورجعت إلى غرفة شؤون الطلاب، أخذت ورقة بها قائمةالمواد التى سأدرسها فى الفصل الدراسى الأول، وورقة بها تعريف بأماكن قاعات المحاضرات والمعامل ، وكراسة بها اللائحة الخاصة بالتسجيل والتدريب والدراسة.
خرجت من غرفة الشؤون الطلاب وأحداث عامين تمر أمامى كأننى أشاهد فيلمًا سينمائيًا أعرف بدايته ، ونهايته ، وأتوه فى ترتيب أحداثه .
تمشيت فى الأكاديمية والأحداث لا تزال تعرض أمامى . كلية العلوم... ياه هل كنت أحبها هكذا !
أحدث نفسى ، وأتذكر معمل الفيزياء الذى كنت أزوره يوميًا وأقضى فيه ساعتين وربما أكثر ...
كنت أحبه برغم أجهزته المنهكة التى لم تكن فى الغالب تعطينا

قيـمًا مضبوطـة للتجـارب ...
وبرغـم الكامـيرات التـى التقطتنـى أحمـل جثـة طالـب لا أعرفـه محـاولاً إنقـاذه بعـد أن أطلقـت الشرطـة عليهالنـار فى مظاهـرة لم أكـن فيهـا ، ولا أنتمـى لفكـر منظميهـا ،وربمـا القتيـل أيضـاً لا ينتمـى إليهـم ، ولكنـه اقـترب مـن الـصراع عـلى الحمـى ؛ فهلـك ،وأنـا تحولت لمجلـس تأديـب؛ وفصلـت نهائيـا مـن الجامعـة .
لم أكرهه يوما ، فقط كل ما بيننا انتهى ...
فنحـن نخجـل مـن الأحـلام التـى لم تتحقـق ، نغـض الطـرف إذًا صادفناهـا، نحقـد عليهـا أحيانًـا ، لكـن لا نكرههـا أبـدًا .
جلست تحت شجرة وبدأت أقرأ قائمة المواد ...
أولا قسم العلوم الأساسية :
الفيزياء ، الكيمياء ، الرياضيات
يا الله ... أين أهرب ؟!
لم أكمـل قـراءة الورقـة ، سـألت عـن مـكان التسـجيل وصعـدت بعـد أن أخـبرنى رجـل الأمـن أنـه فى الطابـق الثالـث مـن المبنـى الـذى أشـار إليـه وهويقـول : فى غرفـة المسـاعدين لأعضـاء هيئـة التدريـس .
صعدت كأننى أصعد جبلًا لا بديل لى عنه ...
ففـى الدرجـة الأولى تذكـرت الطالـب المقتـول وشـكرت اللـه لأننـى مـا زلـت أحتفـظ بانسـانيتى وسـط دنيـا الدمـاء ، وسـخرت مـن نفـسى التـى كان كل همهـا أن لا ألاحـق أمنيـا !
ولم تكن المسكينة تدرى بأننا سنلاحق من كل شيء ...
سـتضربنا الذكريـات دون رحمـة ، سـتقف أمامنـا وتجعلنـا نتعـثر ،

سترسم على أعيننا كل السحب السوداء .
وفى الثانية تذكرت حياة القطار .
وفى الثالثة تذكرت حبيبتى وهى تعانق يدى فى يوم بارد التقينا فيه عند السادسة صباحًا قبل استيقاظ الشمس وقبل طلوع الخيبات ، وكيف من يومها أصبحت صديق الشتاء ..
وفى الرابعة رقصت حبيبتى بفستان الزفاف رقصًا موجعًا يشابه رقص الصوفية ، فدوزنت لها الإيقاع ودعوت الله لها بقضاء شهر عسل جميل مضى منه عشرة أيام
وفى الخامسة والسادسة أقسمت أنى سأعود ، أقسمت بأنى سأمحوهذا الخراب ، وأحول كل الخسارات انتصارًا .
وفى السابعة عثرتنى إحداهن بعطر حبيبتى .
وفى الثامنة ضاع منى اللحن . وفى التاسعة والعاشرة حاولت أن ألملم عينى قبل أن أنظرفى عين .
عينان زرقاوان فى آخر الغرفة تلمعان ...
طالما كنت شجاعًا أمام العيون الجميلة ، خضت ألف معركة وانتصرت . واليوم أبدوكمحارب مزقته الحراب والسيوف ولم يعد يملك من عتاد الحرب سوى عينين مكابرتين وقلبًا يبحث عن السلام .
نظرت إليها طويلاً ، عرفت أنها تقوم بتسجيل المواد للطلاب الجدد؛ وذلك من خلال هيئة الطالب الواقف بجوارها . لم أدخل القاعة وأظنها لمحتنى أنظر إليها .
وقفت خارج الغرفة أترقب انتهاء الطالب من التسجيل كى أسجل

معها دون غيرها .

خمس طاولات فى غرفة المساعدين لأعضاء هيئة التدريس ، وخمسون معيدة يسجلن المواد لمختلف المراحل معظمهن من مواليد أواخر الثمانينات وأوائل التسعينات أعرف ملامحهم جيدا فهم الأكثر حرمانًا عاطفيا بين شباب هذا الجيل ؛ لقد عاشوا قمة الانفصام فى أسوأ حالة ،وعانوا أشد العناء فى فترة الجامعة من زيف التدين الذى وصل ذروته ، ومن زيف الوطنية التى أعلنت بوضوح ازدراءها لكل شعاع نور ، إلى جانب أنهم عاشوا الثورة

وتذوقوا طعم الفقدان المستمر .

دخلت بمجرد انتهاء الطالب من التسجيل

-صباح الخير

-صباح النور

وخلاف الطلاب الواقفين سحبت كرسيًا وجلست ، وفتحت أشرعة أعينها تعجبًا ، وجلست أحدق فى الموج الأزرق وأقول: لا تتعجبى من جلوسى بجوارك فإنى متعب ، وليس على المنهكة قلوبهم حرج.

على الرغم من ارتباكها ظلت تنظر لى ،ودار بينى وبين زرقة أعينها أكثر من حديث صامت وقبل أن أغرق مدت يدها دون كلام لأعطيها الورقة .

فى يدها اليمنى أثر حريق ، وفى اليسرى أثر عملية جراحية ، ولكنهما على جرحهما لا يعرفان الخجل ؛وكأن الحريق وأثر

الجراجة وردتان رسمتهما بالحناء فنانة هندية . آه من لغة الأيدى !!

تلك اللغة الفاضحة لتاريخنا برخائه وكفاحه وراحته وعذابه.

كسرت الصمت بسيف التهكم : ما سبب الحريق بيدك اليمنى؟

نظرت إلى، ولم ترد.

طلبت صورة لى وصورة للبطاقة الشخصية ؛ فأعطيتها .

قامت بنقل الاسم والعنوان والرقم القومى على ورقة التسجيل، ووضعت الصور فى ملف ، وأعطتنى الورق لأقوم بالتوقيع أمام كل مادة .

وقعت أمام الفيزياء وأنا أنزف ، وأمام الرياضيات بكبرياء وعندما وصلت إلى الكيمياء قالت : هذا سبب الحريق.

قلت : إذًا كنت زميلتى ؟!

فتحت الملف وأخرجت صورة البطاقة الشخصية فأدركت أننى أكبر زملائى الجدد بعامين ضحكت ووضعت يدها على شفتيها خجلاً ، ثم قالت :

إذًا كان جرحك أكبر بكثير من حريق يدى !

قلت فى نفسى : ليتنى ما بدأت معها الحديث ولا نبشت جرحها ولا تحدثت لعينيها ...

لكن كان يجب على أن أنهى الحديث بكبرياء كما بدأته.

قلت : درست فى كلية العلوم ... أليس كذلك ؟

أومات لى بالإيجاب . لست وحدى أملك الإدهاش والتهكم ؛قامت وقالت : تعالَ معى .

ذهبت خلفها مثل طفل يتعلم المشى وفى كل مشوار يكون هدفه أن يصل إلى أمه دون أن يسقط ...

كانت أجمل من أن توصف : تنظر إليها وهى تمشى أمامك فيجتاحك إعصار أنثوى يستفز رجولتك حد الاشتعال تغمض عينيك وتفتحها فتشعر أن جبلا من كبرياء يسير أمامك ، وفى المرة الثالثة تتوه ...

لا أعلم إلى أين تأخذنى تلك المرأة التى دخلت فى تفاصيلها واقتحمتنى هى الأخرى فى ثوان معدودات ...

آلجرح جمعنا ؟! ما انطباعها عنى ؟ وما انطباعى عنها ؟.

تلك التى تسير أمامى فلا أرى غيرها ، ولا أبالى إلى أى مكان تأخذني...

دخلنا فى مبنىً آخر ، وصعدنا إلى الطابق الثانى ، مشينا فى الطرقة حتى وصلنا إلى معمل الكيمياء .

فتحت حقيبتها البيضاء ، وأخرجت مفتاحا لم تكن متأكدة من أنه الخاص بمعمل الكيمياء حيث أنها لم تدخله منذ شهرين . فقط كان العامل المسؤول عن نظافته والفنى المسؤول عن الصيانة وشراء مستلزمات المعمل هما من يدخلانه فى أيام الإجازة.

فتحت الباب ، وابتسمت قائلة : لا تعتد على ذلك . سرعان ما يتحول المعمل إلى سوق عند قدومكم .

بالفعل كان المعمل نظيفًا ومعدًا بشكل كامل لاستقبال الدفعة الجديدة ، كما لاحظت الفارق الكبير بينه وبين المعامل فى كلية العلوم . قلت : المعمل رائع ، والأجمل أنى أول الداخلين وبصحبة

سيدة المعمل الجميلة .
ابتسمت كأنها تسخر من مغازلتى ، وفى مواصلة لعروض الدهشة: دخلت إلى غرفة مفتوحة فى المعمل ،وأحضرت علبة شفافة بها ملح نستخدمه فى التجارب ،ذهبت إلى آخر طاولة وأسكبت قليلاً من الأملاح عليها ،ووضعت بضعة أنابيب اختبار على الطاولة ، ووضعت زجاجة حمض الكبريتيك المركز (ماء النار) على حافة وبدأت تسكبه وهى واضعة يدها على حافة الطاولة ، وتقول : اقترب ...
عرفت وقتها أن الحريق كان بسبب حادثة معملية ولدهشتى خشيت أن يستمر العرض وتسكب الحمض على يدها !!
أدركت حين ذلك بأنها جد وحيدة لدرجة أنها لم تسأل عن جرحها يومًا ؛ فراحت تحكى كل التفاصيل وتعيدها لى وكأنها تعرفنى منذ زمن وتجمعنا صداقة قوية !
قلت لها : لقد قلتِ بأننا نفسد نظام المعمل ، والواضح أن سيدة المعمل هى من تفعل ذلك !
ضحكت ، وذهبت إلى الغرفة ثانية وأحضرت منشفة رتبت الطاولة سريعًا ، وجاءت لتجلس بجوارى عند الطاولة الأولى بجوار الباب سألتها : أى فرع من فروع الكيمياء درستى ؟
قالت : ما تخصصت فى الكيمياء – أصلا – ، لقد درست الرياضيات
_الرياضيات !! وكيف تقومين بتدريس الكيمياء لنا ؟!
_أنا أقوم بشرح الجزء المعملى فقط وهومقرر بسيط يمكن لأى طالب بكلية العلوم أن يشرحه وفى الفصل الثانى أدرس لكم

الرياضيـات.

شـعرت بفرحـة حيـث إن الكيميـاء تـدرس لفصـل دراسى واحـد ، بينـما الرياضايـات تسـتمر لأكـثر مـن ذلـك مـما يزيـد مـن احتـمال دراسـتى معهـا لعـدة فصـول . وانتظـرت أن تسـألنى عـن عامـين لى فى كليـة العلـوم ، لكنهـا لم تفعـل .

-قلت : ما اسمك

-قالت : أنا عبير

-نعـم أنـت عبـير لأنـكِ المـاضى فى أجمـل صـورة . ضحكـتْ وهـذه المـرة لم تضـع يدهـا عـلى شـفتيها فتمكنـت مـن رؤيـة المـد والجـزر .

-وأنتَ فى أى فرع تخصصت ؟

-درست الفيزياء ، ولكننى لم أتقن سوى « السقوط الحر «

-ضحكت مجددًا وقالت :

-جميعنا جرب السقوط الحر يا عمر ...

وقفـتْ أمـام الغرفـة المفتوحـة فى المعمـل وقالـت : سـأكون هنـا دومـاً، يمكنـك ان تـأتى فى أى وقـت .

_ شكراً جزيلاً لك . قالت : هيا بنا لنكمل التسجيل .

فى طريقنـا للعـودة مشـينا جنبـا إلى جنـب ولم ننظـر لـشىء سـوى أعيننـا. قالـت : مـا انطباعـك عـن الاكاديميـة ؟

قلت : فقط أريد أن أهرب – لا يهم إلى أين

قالت : فكر فى المستقبل يا عمر

أومـأت لهـا بالإيجـاب ، ودخلنـا الغرفـة ثانيـة . انتهينـا مـن التسـجيل، ثـم طلبـت منـى الإيصـال الخـاص بتسـديد رسـوم الكتـب ، وكتبـت

على ظهره قائمة المواد التى سأدرسها ، ثم قالت يمكنك الآن أن تأخذ الإيصال وتنزل إلى المخزن لاستلام الكتب .

قلت لها : شكراً جزيلا ، أراكِ على خير

ردت : إن شاء الله . بالتوفيق يا باشمهندس .

لم أهتم بهذا اللقب الذى كان حلمًا فى يوم من الأيام .نزلت على الفور ، وسألت عن مكان المخزن ، كان عدد الطلاب الواقفين لاستلام الكتب قليلاً .

انتظرت خمس دقائق وأنا أفكر فى الحياة التى تتغير دون أن تسألنا هل نقبل التغيير أم لا ! فقط تضعنا أينما تشاء ، وقتما تشاء .

جاء دورى ، استلمت الكتب ولم أستطع البقاء أكثر فقد كانت الذكريات تتصارع فى داخلى ...

فى العادة لا أستطيع النوم نهارًا ولا أحبه ، ولكن فى ذلك اليوم كانت لدى رغبة ملحة للنوم سببها الضوضاء بداخلى . الساعة العاشرة صباحا : كان الشارع هادئًا فى ذلك الوقت والمواصلات جيدة لأن معظم الناس قد وصلوا إلى أماكن عملهم مما مكننى من الوصول إلى بيتي سريعا .

كانت تلك المرحلة مفترق طرق بالنسبة لى وعلى الرغم من كونى أدخل فى مفترق طرق لأخرج على آخر ، واستوحش الطريق فى الغالب كانت تلك المرحلة هى الأصعب لأننى كنت أريد إستبدال الخسارات كاملة بمكاسب فى كل شىء .

ولأن أحلام طفولتى عادت لتطاردنى ، ولأن الزمن يسابقنى ،

والخيبات تضربنى كنت أحتاج إلى مزيد من الصبر .
لا يوجد أحد فى منزلنا فى ذلك الوقت من اليوم . صنعت كوبا من الشاى تناولته فى حجرتى المظلمة ،وضعت الكتب على منضدة ونمت .
تعلقت بالأحلام كثيراً فى ذلك الوقت حتى ولوكانت فى معظم الوقت كوابيساً ، كنت أنتظرها لأنها كانت تحمل فى مجملها طيف من أفتقدهم .
لكن فى ذلك اليوم لم يأتِ إلى أحلامى سوى حديثى مع سيدة المعمل الجميلة !
أيقظتنى أمى فى الساعة الثانية ظهرًا ، سألتنى عن التسجيل، وأوصتنى بأن أهتم بمستقبلى أكثر . كانت لاتتحدث لى كثيراً لأنها تعرف أنى عنيد أفعل فى النهاية ما أريد ؛ فتكتفى بالدعاء ، وتقدم النصائح من وقت لآخر .
عبير !! أهوإنذار باحتلال قادم ؟
أحدث نفسى ، وأنا آخذ حمامًا وأراجع الحلم لعلها أضافت شيئاً لا أذكره .
بين ضياع وآخر نستعين بالجداول ؛نرتب الخيبات فى صفحة، ونسطر المستقبل فى أخرى .
كعربى أكره جدولة الوقت ، كان هذا الأمر صعبًا على .
كوبا آخر من الشاى ، وأوراقًا بيضاء وجلست أرتب العام الجديد. بدأ الحلم يعاد أمامى قبل ان أكتب ؛ فكتبت :« دعينى أتحدى دموع القلب وأجزم أن هناك ثمة أشياءتستوجب العشق،

مثل عينيك « ولم أنتبه وقتها لكونها أول امرأة أكتبها ، وأنها دون غيرها
ستكون حكايتى الأبقى .
فتحت الحقيبة ، وأخرجت كتاب الكيمياء ، ظللت أقرأ فيه ساعة كاملة على الرغم من أننى ما أحببت الكيمياء يوما فقط كنت أحصل فيها على درجة عالية كنت أعرف هذا المقرر جيدًا ...
انتابنى شعور غريب أعادنى للوراء كثيراً ، وأربكنى كثيراً ، كأننى كنت أقرأ لها ، كأننى أذاكر دروسى التى لم تبدأ بعد كى أنال إعجاب أستاذتى الجميلة !
أعادنى هذا الشعور إلى المرحلة الابتدائية عندما كانت مدرسة الخط العربى تجلس فى مقعدى منبهرة بخطى ،وكانت تغدق على فى الثناء ، وتختصنى بمزيد من القواعد الإضافية تمكننى من الرقى بخطى أكثر. لكن خطيئتى الأبدية أن الاهتمام يزيدنى طمعاً ؛ فرحت
أقابل هذا الاهتمام بطمع ...
كنت ألهو عمدًا كى تسامحنى فى الوقت الذى تعاقب فيه غيرى، كنت أتعمد الخطأ فى القواعد كى تعود ثانية لتجلس بجوارى وترى كتابى مرة أخرى .
هذا الشعور الذى يرمينى إلى بداية العمر ، ويسحبنى إلى آخره، ولا أستطيع تجاهله فى الفترة التى أحتاج فيها لنفسى كثيراً كى ألملم نفسى ؛ نعم إنه إنذار باحتلال قادم !ولكن فى الوقت الذى تسربت فيه إلى أحلامى ، وأربكتنى أعينها ، وانكسرت بيننا حواجز

الألم ، وذاب الروتين ، وفضحنا تاريخنا ؛هل ما زلت أتحدث عن احتلال قادم ؟

هل أشبه أولئك الذين يتحدثون عن المؤامرات التى تحاك ، ويردون كل شيء إلى نظرية المؤامرة ؟!ولا يدركون أننا عشناها فقرًا وجهلا ومرضًا ، وشاركنا فى ازدهارها خوفًا ونفاقًا وصمتًا ، ولم يعد يتبقى من فصول المؤامرة سوى أن أقول لتلك المرأة أحبك . احتفظت بالورقة فى دولابى ، وكنت أعلم أنى سأهديها يومًا تلك الورقة .

رجعت إلى أوراقى البيضاء وببالى كل الأمنيات التى لم تتحقق ؛ من يوم كان حلمى أن أصبح لاعب كرة قدم محترف ، وأخبرنى أبى بأنه لن يكمل سوى من لديه واسطة ، ونسى أن يقول أومثابرة . كانت لدى فرصة جيدة كى أتمرن على الالتزام بجدولة المواعيد ، والاستعداد للأشياء التى سأفعلها بجوار الدراسة

التي ستبدأ بعد عشرة أيام .

كان الجميل فى تلك المرحلة هوأن خسارة كل شيء تعيدك إلى الاختيار الحر فى كل شيء .

ارتديت ملابس رياضية ...وببالى خمسة أعوام من تدريبات عظيمة فى قتال الشوارع كنا نبدأ التدريب عند السادسة صباحا: نجرى حفاة على الحصى لمدة ساعتين بين الإحماء والركض السريع وثلاث ساعات للنزال لكن حادث سير حال بينى وبين الاستمرار فقد لازمت السرير سبعة أشهر ، وكنت أحتاج لقدر كبير من الصدق

لم يكـن عنـدى . فالصـدق هوصديـق الأحـلام فى الطـرق المفروشـة ضجـرًا وحقـدًا وتعـثرًا .

والآن أحتاج إلى مزيد من الصدق لكى أبدأ من جديد .

ذهبـت إلى النـادى ، وسـألت عـن موعـد لتدريـب الملاكمـة. أخـبرت المـدرب بأننـى مبتـدأ

-قـال : فى الغالـب مـن هـم فى عمـرك محترفـون ، لذلـك سـتقضى عامـاً مـع فريـق الناشـئين ، تقـصر تلـك المـدة إذًا أظهـرت مهارتـك وتعلمـت القواعـد سريعـا .

لم أتردد لحظة

طلـب منـى أن أذهـب إلى غرفـة المـشرف الريـاضى لدفـع الرسـوم واسـتخراج الاشـتراك ، وأخـبرنى بمواعيـد التدريـب وأخـبرنى بـأن البداية سـتكون فى الأسـبوع التـالى .

الفرحـة جميلـة مثلـما الحـزن عتيـق ، وأنـا لا أقـاوم الفرحـة مثلـما لا أقـاوم الحـزن ...

شـعرت بفرحـة كبـيرة كأننـى وضعـت قدمـى عـلى طريـق قضيـة عظيمـة أقـوم نفـسى وأهـذب شـخصيتى لأجلهـا ...

لذلك لم أبالى بكون الأحلام تأتى متأخرة !

كانـت لـدى فكـرة مسـبقة عـن الملاكمـة ؛ اشـتريت الـزى الخـاص باللعبـة ، والقفـاز ، وواقـى الأسـنان .

لم أتنـاول شـيئاً طـوال النهـار ، لذلـك دخلـت مطعـمًا أحبـه كثـيراً لكـثرة المرايـا التـى تحيـط جوانبـه ، وفى كل مـرة أدخلـه أتذكـر صديقـا لى كان يقـول فى كل مـرة نخـرج فيهـا للطعـام : هـل تظـن يـا عمـر

بـأن اللـه لـن يحاسـبنا عـلى الطعـام الـذى نأكلـه بعدمـا نشـبع ، والدنيـا مليئـة بالفقـراء ؟!

كان يعجبنـى هـذا الفكـر كثـيراً ...فعـلى الرغـم مـن ذنوبنـا لا بـد أن تبقـى معـان الرحمـة والانسـانية نصـب أعيننـا ، لذلـك اعتـدت أن أقسـم الطلـب إلى نصفـين : نصـف لى والآخـر آخـذه معـى مغلفـا لأعطيـه

لأول فقير يقابلنى .

وتبقـى مشـكلتى عندمـا أطلـب القهـوة هكـذا (لوسـمحت قهـوة سـادة سـودة) لأحصـل عـلى تعقيـب ظريـف مـن الجرسـون ، أتقبلـه دومـاً بصـدر رحـب ...

تناولـت قهـوتى وخرجـت ، حملـت المشـتريات ونصـف الوجبـة المغلـف، وفى طريقـى قابلـت سـيدة عجـوزًا قـد تتجـاوز الثمانـين مـن عمرهـا متـكأة عـلى عصـاة وفى يدهـا الثانيـة مناديـل تبيعهـا ...

قلـت لهـا : كيـف حالـك يـا أمـى ، ووضعـت كيـس الطعـام فى يدهـا.

قالـت : (ربى يسـعدك يـا ولـدى ، ربى مـا يحكـم فيكـم ظـالم) .

دخلـت قلبـى دعوتهـا ، أثـرت فى كثـيراً ؛ هـى التـى تعـرف جيـدًا معنـى الظلـم . رجعـت إلى البيـت سريعًـا وكلى حقـد عـلى أولئـك الذيـن يتحدثـون نفاقًـا عـن الوطنيـة ليـل نهـار ؛يحلفـون كذبًـا كالتجـار ، يتقاضـون ثمـن اغتصابـه كالقوادين .

ومـن أكـثر وطنيـة مـن تلـك المـرأة ، ومـن أكـثر وطنيـة مـن المقهورين المعذبين ؟!.

بـين حـب وحـب نسـتنجد بصديقـة . سـوار صديقـة رافقـت قصتـى

الأولى ، تشبثت بها كثيراً لإنهاء العواقب التى واجهتنى خلال علاقتى فقد كانت صديقة مشتركة لنا ، منذ زمن لم أهاتفها...

-مساء الخير يا سوار.

-عمر !! أفتقدك جداً ، لم تسأل عنى منذ زمن ؟!

-آسف جداً يا سوار .أحاول ترتيب الفوضى ...

ماذا ستفعل فى دراستك ؟ هل اتخذت قرارا ؟

قلت : نعم . سألتحق بكلية الهندسة .

الله ! الله ! أخبار جميلة يا صديقى إنه حلمك القديم يا عمر، الله كريم يا عمر ، انتظر إبداعك واستعادة عمرالذى نعرفه.

إن شاء الله يكون ذلك يا صديقتى ...

كيف كانت الإجازة ؟

-عمر ! لا تجعلنى أتذكر . مملة جداً وجدًا ...طوال الصيف أطلب من أبى النزول إلى دروة تدريبية لتعلم قواعد الرسم ويقابلنى بالرفض ، ولم يسمح لى بالنزول إلا اليوم فقط ...

قاطعتها بفرحة : لم أعرف من قبل أنك ترسمين !

أرسم منذ زمن بعيد ، لقد رسمت أشياء كثيرة ، ولكنك لا تعلم عنى شيئاً كنت أسمعك فقط .

وتذكرت العهد الذى قطعته ونقضته :بأن لا أجعل بينى وبين التى أحبها صديقة ؛ لأنى بذلك أضع البنزين بجوار النار وأمنعه أن يشتعل فيحترق بصمته ، ويأتى اليوم الذى تأكل فيه النار نفسها ..

كان محرمًا عليها أن تحكى عن نفسها ، كما سيكون العشق عليها

محرمًا .

قلت : آسف جداً يا سوار ، لقد كنت كريمة جداً معنا ، وأكملت لأغير الموضوع : جيد أن أباك سمح لك بالذهاب إلى الدورة التدريبية . -لكن الإجازة قد انتهت يا عمر ، وأريد أن أضع كل تركيزى على الدراسة كى أخرج بتقدير مرتفع .

-لا تضيعى تلك الفرصة يا سوار ، أنا أيضاً لدى موهبة

-حقا . هل ترسم أنت أيضاً ؟

-لا . بل أكتب

تكتب شعرا ؟

-قلت : بل أكتب رواية .

(كان لدى شعور بأن الورقة التى كتبتها إليها ستنجب أدبًا، ستورطنى، وتتآمر مع نفسى ضدى لتأخذ من أعصابى ودمى ؛ لذلك كذبت !)

_ إذًا ستكتب عن نفسك لأن الروائى لا يمكنه أن يهرب من نفسه فى أول رواية له ...

_ لا . لا أكتب نفسى أبدًا ، بل أكتب الوطن !وتمنيت لوأن محمود درويش قال : الوطن هو كذبتنا الصادقة . فالوطن مثل الحب ... وتمنيت لوأنى قلت الحقيقة : نعم أكتبنى ، وأكتب صديقتكِ وأكتبكِ وأكتب القطار الذى جمعنا ليل نهار، وأكتب امرأة تورطت فيها ، وأكتب عيناها : عينا ترمينى لبدايات العمر ، وأخرى تسحبنى لأقدارى ، وأنا بينهما أرسم الوجع أدبًا ، وأنشد الحنين لحنا ، وأذوب فيها عشقًا فتصبح هي الدنيا ..

_ سنتقابل إذًا ونحكى عن لوحاتى وروايتك ؟
_ بكل تأكيد أود رؤيتك ، سعيد جداً لسماع صوتك، إلى اللقاء
_ إلى اللقاء .

كنت فى تلك الفترة منعزلاً ،لا أفكر سوى بما سأفعله فى الفترة المهمة المقبلة ؛ لذلك لم أذهب إلى حفل زفاف صديق لى ، وكنت من قبل لا أضيع مثل ذلك ...

صنعت كوبًا من الشاى الذى أدمنته فى تلك الفترة ، وصعدت إلى سطح بيتى ... هذا اليوم الملئ بالأحداث هل هوإشارة لفتح صفحة جديدة مع الذاكرة ؟

جلست حتى منتصف الليل وأنا أدور بين الحنين وعيون جاءت لتضربنى ، بين خيبات وأحلام على وشك البدء ، وفى النهاية نمت راضيًا ...

أيقظت صديقى عند السادسة صباحا : لدينا تمرين !

لا أحتاج إلى كلمات كثيرة كى يفهمنى هذا الفتى الذى أعرفه منذ ثمانية عشر عاماً . ضحك ، وقال : أنا على أهبة الاستعداد .

أخذت حمامًا سريعًا ، وارتديت ملابس رياضية وخرجت فى طريقى إلى النادى حيث كان التدريب ، وكان لعبنا ، وحيث كل الذكرى أفراحًا ...

وصلت بعد ربع ساعة ، وجدته قد سبقنى ومعه عصير التمر الذى اعتادت أمه أن تقدمه لنا بعد كل تدريب .

فرح صديقى كثيراً بخطوتى لتعلم الملاكمة فهو يرى أن الرياضة وسيلة لقتل الضجر ، فعلى الأقل إن أخذ الضجر من الروح شيئاً

، تسترده الروح قوة فى الجسد .
تناولنا وجبة الإفطار فى بيته ،شربنا القهوة بجوار شجرة الورد التى كنا نظنها تبكى كلما قطفنا منها بنتًا ...
لم أخبره عن المرأة الجميلة ، وهولم ينبش جرحى القديم
فقط قال : ابحث عن الشيء الذى يعيدك ، وبطريقتك ...
لم أجلس أكثر ؛ كان يستعد للسفر ، سيقضى شهرين فى الجامعة قبل أن يعود .
يومها كانت لدى رغبة ملحة أن أراها خلسة ...أن أسترق إليها النظرات ، أن أخرج من بيتى فقط لأراها أن أسأل عنها طلابها خشية أن يكون ما فعلته معى من باب الشفقة .
الساعة العاشرة صباح أخذت حماما وارتديت ملابسى ووضعت عطرًا محرضًا برائحة الياسمين وخرجت .
ازداد تورطى فيها أكثر حين شعرت بأسف شديد لأنى لم أجدها .
كان ذلك يوم إجازتها المعلق بجوار الباب ولم ألاحظه أول مرة .
لم أفعل شيئاً ، ورجعت إلى البيت سريعًا .
استيقظت فى اليوم التالى ، وليس ببالى سواها . نزلت إلى الأكاديمية ثانية لأراها ، كانت ملامحى لا تعبر عن طالب مستجد وغربتى تعبر عن ذلك ...
تحدثت إلى طالب من الذين يعملون فى الأسر والأنشطة الطلابية كان برفقة زملائه يعدون الزينة ولوحات الترحيب بالطلاب الجدد
-لم أراك من قبل ... أول عام أليس كذلك ؟
قلت له : نعم

مرحبًا بك ، هل قمت بالتسجيل ؟
أخذت هذا السؤال إلى الأسئلة التى أبحث لها عن جواب ...
_ نعم . قمت بالتسجيل مع المهندسة عبير ، وكانت بشرى خير بالنسبة لى ؛ فقد بدا لى أنها متعاونة وتساعد طلابها كثيراً ... أليس كذلك ؟
قال : لقد درست معها . لديها مادة علمية جيدة ، وشرحها سهل وبسيط . لكن يسرى عليها الروتين الذى يسرى على الجميع، على أية حال الدراسة معها مفيدة وتتعامل مع طلابها باحترام شديد .
أسعدنى كلامه كثيراً ؛ فقد تيقنت أن سيدة المعمل الجميلة قد اختصتنى بكسر الروتين ...
قلت له : عملاً موفقًا ، نلتقى خلال الدراسة إن شاء الله .
مشيت فى الطرقة أقصد معمل الكيمياء كان الباب مفتوحا ، ورأيتها تدخل بفستان يشبه لون أعينهاموشىً باللون الأسود ، وحزامًا ذهبيًا؛ وطار عقلى .
طرقت الباب ، ودخلت
كانت تجلس عند الطاولة الأولى بجوار الباب ، وأمامها دفتر أزرق، وعلبة كبيرة شفافة بها أملاح للتجارب ،وكان الفنى يوزع أنابيب الاختبار على الطاولات .
صباح الخير .
قالت : عمر !! صباح النور. كيف حالك ؟
بخير والحمد لله ، وأنت ؟

فى أفضل حال

قلت : ماذا تفعلين ؟

قالت : أعد لكم أول تجربة سندرسها ، هل أنت مستعد ؟

قلت : أجل يا سيدتى

لترد ضاحكة : أجل يا سيدى ...

أى تجربة هى ؟

قالت : اختبار ورقة عباد الشمس فى المحلول القاعدى .

كنت أعلم أن نتيجة الاختبار تكون : تحول ورقة عباد الشمس إلى اللون الأزرق ...

قلت لها : إذًا سأتوه فى اللون الأزرق يا سيدتى !

تنهدت ، ونظرت إلى وهى تقول : ستساعدك دراستك فى كلية العلوم كثيراً ، يجب أن تستغل ذلك لتحصل على درجات عالية . كأنها قالت ذلك لتعاقبنى على مغازلتها ..تحولت بعينى إلى أرجاء المعمل ، وهى ظلت تنظر لي. التفت إليها وقلت : بالتأكيد ساعدتنى كثيراً ؛ فأنا أجلس الآن بجوارك بفضل ذلك ...

امتلأت عيونها شفقة ، صمتت ، وظلت تنظر لى ، وأنا تحولت بعينى للمعمل ثانية ...

فى ذلك الوقت خرج الفنى لشراء قائمة أعدتها له مسبقا .

-قالت : ما هذا الوجع بداخلك يا عمر ؟

وشعرت أنى بحاجة إلى البكاء ، إلى أنهار من دموع تسقط على طرف الذاكرة ، وإلى أعاصير تقلب الصفحة كى أتخلص من هذا الخراب لكنه زمن البكاء قد انتهى وأصبحت كمن يسقط من

طابـق مرتفـع ويصـاب بنزيـف داخـلى ، ولا تسـقط منـه قطـرة دم واحـدة ؛ فيمـوت بعـين وجـرح وقلـب ولسـان صامتـين !

لم أرد عليهـا ، ولم أنظـر إليهـا . قالـت : عمـر ... انظـر لى وجـاء زلـزال ليضربنـى بقـوة عـشر درجـات عـلى مقيـاس ريخـتر ...

نادتنى ثانية ، وهى تضع يدها فوق يدى ...

ذكرتنـى بمجنونتـى الأولى التـى كانـت تـرد عـلى اسـتنكارى لصمتهـا بمعانقـة يـدى ...

وأنـا الآن بجـوار امـرأة تسـتنكر صمتـى ، وتعانـق يـدى ؛لذلـك سـتكون القصـة معهـا أعنـف ، وسـيكون وداعهـا أشـد هـلاكًا ؛ لأننـى سأعشـق تلـك المـرة حبيبـة ، وأمًـا ...

نظـرت إلى يدهـا ، وقبـل أن تسـحبها أمسـكتها وجعلـت يدهـا بـين يـدى رفعتهـا إلى شـفتاى وقبلتهـا فى كفهـا ؛ ارتجفـت ، ووقفـت سريعًـا وهـى تنظـر إلى البـاب الـذى مـا زال مفتوحـا .

تركـت يدهـا وأنـا أقـول : سـينتهى كل شىء ... سـينتهى كل الألم عـلى يديـكِ ، معـكِ لـن أسـتوحش الطريـق ، ولـن أمـل ، ولـن أضـل .

دخلـتْ إلى الغرفـة المفتوحـة فى المعمـل ، وأنـا جلسـت أتنهـد بعـد الزلـزال ، وأنظـر للمعمـل وأقـول لنفـسى هـل جننـت ؟! أى تهـور هـذا ؟!

ولكننـى علمـت بـأن هـذا المعمـل سـيكون مـلاذى مـن الضجـر سـيكون:حمام الحـب الزاجـل الهـارب مـن زرقـاء اليمامـة ،ومجالـس شـعراء الغـزل الذيـن لا يمدحـون الخليفـة ،وشـبابيك الجيران المحبين وتلغـراف العاشـقين ،والهاتـف المنـزلى الـذى يسـترق خلـوة البيـت

لحديث الولهانين ، والهاتف الخلوى مؤنس المشتاقين ،ومواقع التواصل الاجتماعى درب المساكين ...

خرجت تحمل علبة أخرى وضعتها على الطاولة ، ووقفت بجوار النافذة .

قلت لها : أراك على خير

- ستغادر ؟

قلت : نعم .

قالت : انتبه لنفسك .

أومأت لها مبتسما ، وخرجت ومشاعر الفرحة والقلق والتعجب يتصارعون بداخلى . دخلت إلى دورة المياه ، غسلت وجهى ، ونظرت فى المرآة وأنا أتمتم : (قصة تنتهى ، وأخرى تبدأ) .

ذهبت لشراء هدية لصديقى الذى لم أحضر حفل زفافه ، هاتفته وذهبت إليه على الفور اعتذرت له عن عدم حضورى ، وتمنيت له حياة سعيدة ،لم أمكث عنده طويلاً فلم يمر على الزفاف سوى يومين وبالكاد يستطيع أن يجلس مع زوجته بسبب الزيارات المستمرة .

خرجت من عنده محاولاً تجاهل فكرة تعلقى بتلك المرأة حد أن أسعى للزواج منها ...ليس فقط لأن الحواجز كثيرة ؛ ولكن لأن الدنيا أصبحت تدور حولها ، أصبحت أول شىء يأتى إلى تفكيرى عند كل شىء . اتجهت إلى محلات الملابس ، كانت المحلات تعرض ملابس الخريف الجميلة الألوان ... أعادتنى إلى الألوان بعد عام لم أرتد خلاله سوى الأبيض والأسود ؛ اشتريت الأزرق والبرتقالى

والأخضر .

كنت سعيدا جداً بتلك المشتريات التى ستكون مفاجاة جميلة بالنسبة إلى أمى التى تتمنى عودتى إلى الألوان ...كما لم أشترِ أحذية بجودة عالية ؛ لكى أتمكن من شراء ثلاثة أحذية بنفس ألوان القمصان ، وكأننى أذهب إلى الألوان بلهفة ...

بالفعل فرحت أمى بالمشتريات جداً .. حتى أنها لم تسألنى إذا كان المقاس يناسبنى أم أنه ضيق !

قبل أن أدخل فى عزلة كان لدى أصدقاء لا يحصوا ومعارف فى كل مكان .

يأتينى الآن صوتهم على فترات بعيدة عبر الهاتف ، جائنى صوت أحدهم يخبرنى بموعد لمباراة كرة قدم فى السابعة مساء ، أخبرته بأننى سأحضر فى الموعد .

لمدة ساعتين وانا أدور بين النوم ، وكتاب الكيمياء . يحدثنى النوم عنها ، وأحدث كتاب الكيمياء بأننى ما أحببت الكيمياء يوما كى يتركنى للنوم ...

أطفأت النور وأظلمت الغرفة جيدا ، وجلست متكأً على السرير، ونمت دون أن أشعر .

استيقظت فى الساعة السادسة ، وبداخلى فرحة شعبين خرجا لتوهما من اتفاقية صلح بعد حرب استمرت لعامين .

كان الله فى عون الشعوب الواقعة بين مطرقة أولادها وسندان الحكام ، كان الله فى عون الشعوب الواقعة بين مطرقة الأعداء وسندان الحكام .ولم أعرف بأننى ذاهب إلى حتف آخر ، إلى تآمر

آخر، إلى نزيف يستنزفنى إلى آخرى ، ولا يقتلنى .
التقيت بأصدقاء لم أقابلهم منذ فترة ، وبدا كل واحد منهم فى صورته الجديدة ...
معظمهم سارت حياتهم بشكل طبيعى : اهتموا بدراسته جيدًا ، أخذوا خطوات جيدة فى علاقاتهم العاطفية التى تشهد استقراراً، وسيخرجون بعد عامين إلى الحياة العملية، أما أنا فلم أتواجد بينهم إلا بالذكرى ، والكبرياء .
كنت قد تركت لعب كرة القدم بشكل متواصل منذ الصف الثالث الإعدادى فى الفترة التى احتدم فيها الخلاف بينى وبين أبى بسبب كرة القدم ، بعد ذلك أصبحت علاقتى بكرة القدم متقطعة ، لكن الذى تبقى هوأننى أكره الخسارة ؛ فأقاتل فى الملعب حتى ينقطع النفس ؛ وهذا كان بلائى فى ذلك اليوم ... بعد ربع ساعة من اللعب شعرت بإجهاد كبير ، لكننى واصلت اللعب . هم فى دنيا وأنا فى دنيا أخرى ؛ هم كانوا يلعبون ، وأنا كنت أبحث عن نفسى ... وأثناء ارتقائى لتصويب كرة برأسى تدخل معى لاعب من الفريق الخصم بشكل عنيف أردانى مصابًا. ارتطم ظهرى قويًا بالأرض ، وعلمت بأن الإصابة ستكون خطيرة .
لم أستطع أن أتحرك ، ولم أستطع أن أعوى لأن أحدًا لن يفهم ، وتمنيت أن يحملونى إليك لعلك تفهمين !!
ولأن الأشياء تأتى إلى معًا وتذهب عنى جملة كنت أشعر بأن كل شيء سينتهى ، ستفشل دراستى وتتعقد الأمور مع تلك المرأة الجميلة ، كما انتهت فكرة الملاكمة ...

لذلـك لم أبـال بظهـرى المكسـور ، ورفضـت فكـرة الذهـاب إلى المستشـفى. حملـونى إلى البيـت لتدخـل أمـى فى نوبـة مـن البـكاء ، ولأدخـل أنـا اختبـارًا آخـر لا أعلـم متـى ينتهـى ، ولا أدرى سـيكون بإمـكانى العيـش بعدمـا يأخـذ منـى المزيـد ؟!

كان الألم يـزداد ، وأنـا أقـاوم فكـرة الذهـاب إلى الطبيـب لأنـه ربمـا يـداوى ظهـرى المكسـور ، لكـن قضيتـى أبعـد !

استسـلمت لفكـرة الذهـاب إلى المستشـفى عنـد منتصـف الليـل جـاءت سـيارة الإسـعاف وحملـت فى طريقهـا كل الجـيران .

انزلـونى عـلى النقالـة وذهبـوا بى إلى المستشـفى .طلـب الطبيـب عمـل أشـعة عـلى ظهـرى بعدمـا أجـرى فحصـا.

وقال : الأمر بسيط إن شاء الله .

كان عـلى الانتظـار حتـى الثامنـة صباحًـا قبـل عمـل الأشـعة .طـوال الليـل لم أتحـدث بكلمـة واحـدة ، ولم أسـتطع النـوم ...لكـن أليـس مـن حقـى أن تـأتى ؟! تلـك اليـد التـى قبلتهـا ألـن تـأتى وتعانـق ألمى؟! لا أعلـم مـن أيـن أتيـت لنفـسى بهـد الحـق . ربمـا كان هذيانًـا مـن بـين كثـير دار بـرأسى المنهكـة لكننـى كنـت أريدهـا حقًـا ... كنـت أريدهـا حقًـا .

كان عـزائى فى تلـك الليلـة أننـا نحتـاج فى ليـل الوجـع النفـسى وجعًـا آخـر فى جسـدنا يمنعنـا مـن الاحـتراق بصمـت ، ويغنينـا كثـيراً عـن شرح حالتنـا .

فى السـاعة الرابعـة فجـرًا كان الجميـع قـد رحلـوا ولم يتبقـى سـوى أخـى جالسـا عـلى اسـتراحة خـارج الغرفـة .

أخذت قرص المسكن الذى رفضته قبل ثلاث ساعات حيث أن الألم قد وصل ذروته .

انتهيت من عمل الأشعة فى الساعة العاشرة صباحا ،وعرضت على طبيب أخر بعدها بنصف ساعة ، أخبرنى بأننى أحتاج إلى تدخل جراحى لإصلاح فقرتين مكسورتين لم يضف إلى الطبيب شيئاً جديدا لأننى شعرت بذلك منذ أن سقطت ، لذلك لم أهتم بموضوع الجراحة .

قلت له : الدراسة ستبدأ الأسبوع القادم ،

هل يمكننى الانتظار حتى إجازة منتصف العام ؟

قال : تلك مخاطرة كبيرة على صحتك ، لكن يمكنك إذًا تحركت بحذر ، وجلست بطريقة مستقيمة وانتبهت للحركات المفاجئة والهزات فى المواصلات وتناولت الدواء بشكل منتظم ، واستعملت لاصقة سأكتبها لك . لكن نصيحتى أن تخضع للجراحة فى أقرب وقت .

أخذ أخى منه قائمة الدواء ، واسم اللاصقة .

قال له الطبيب : عندما تأتى باللاصقة أخبرنى كى أعلمك طريقة استخدامها ولصقها قبل أن تغادروا .أنهينا ذلك .... وعدت إلى البيت.

الفصل الثالث

تعالى نقاوم عصرا يحترف الدوران

إن البحر عميق جداً ، إن الموج شديد جداً

وأشرعتى هلكت ... ولا تقبلنى الشطآن

للمـرة الثالثـة لم تسـتطع اخفـاء لهفتهـا ، وعبثـا حاولـت اسـتدعاء شـخصية المعلمـة ، ولكـن خانتهـا عيناهـا .

ثلاثـة أسـابيع مـروا وهـى تهـرب منـى إلى أقلامهـا ، والسـبورة ، وزملائى.كنـت أراهـا مـرة فى كل أسـبوع ،وهـو اليـوم المخصـص للمعمـل، وباقـى الأيـام كنـت أمـر أمـام المعمـل ولا أراهـا .

لم نتحـدث خـلال المـرات الثـلاث ففـى المـرة الأولى كانـت تـشرح كيفيـة التعامـل مـع الأدوات للخـروج بأفضـل نتائـج ، وفى المـرة الثانية شرحـت التجربـة الأولى نظريًـا ، وفى المـرة الثالثـة قامـت بتطبيقهـا عمليًـا وقالـت: فى المـرة القادمـة سـتقومون بتطبيـق التجربـة .

كنـت طـوال تلـك الفـترة واقفًـا مثـل باقـى زمـلائى كى لا أطلـب منهـا الجلـوس فتعـرف اصابتـى !

أنـا الـذى كنـت أتمنـى أن يحملـونى إليهـا عندمـا وقعـت والآن ترمينـى فى الزاويـة حيـث لا أسـتطيع فعـل شىء سـوى انتظارهـا ...

خرجـت مـن المعمـل يومهـا دون أن أنظـر إليهـا ، وتكـررت معانـاة كل يـوم الذهـاب إلى الأكاديميـة والعـودة إلى البيـت دون اضافـة ألم جديـد إلى ظهـرى المكسـور ...

فى تلـك الفـترة كنـت أجلـس عـدة سـاعات محـاولاً إقنـاع عقـلى لـكى أذاكـر دروسى ...

أخـبره أننـا مـا زلنـا نسـتطيع العيـش ، يمكننـا أن نعمـل مجـددا يمكننـا أن ننجـح ثانيـة ...

فمـرات أذاكـر لنصـف سـاعة بعـد جلـوسى لعـدة سـاعات أمـام الكتـاب، ومـرات أهـرب إلى النـوم .

استيقظت فى اليوم التالى وكلى شوق إليها ...وكان على أن أنتظر أسبوعًا كاملا وأنا بهذه الحال قبل أن أراها ، وأصبحت أشك فى صبرى ...

فى ذلك اليوم كنت كالمجاذيب : تركت كل المحاضرات ونصائح الطبيب ورحت أدور حول المعمل لعلى أراها كانت تعمل طوال اليوم ، ولا يرضينى أن أقتحم المعمل بحجة تجمع بين الأستاذة وتلميذها ، وهى لم تخرج .

كان صعبا على أن أصبر مجددًا وألحان كاظم تطاردنى فهربت إلى البيت سريعًا خشية أن أبكى بأعلى صوتى (أبحث عنك) .

رجعت إلى البيت مهزومًا فارغ الصبر محملا بشوق إلى سيدة لم ترفضنى ، ولم تقبلنى لم تأخذنى كلى ، ولم تترك وجعى كما كان وحيدًا .. مع الصبر .. دون أن تفسد علاقتهما . يومها.

لم أنتبه إلى كتبى ، ولم أبالِ بوجع ظهرى ، ولم أتناول الدواء وجلست من حيرتى أبحث بين صديقاتى عن واحدة كانت تشبهها لعلى أعرف كيف أمشى إليها تلك التى محت آلامى وأصبحت هى مشكلتى الوحيدة ، لكنها محت كل النساء !!

نمت بدون أن أشعر ، واستيقظت على مدد ، منتصف ليل الحادى والعشرين من أيلول وبداية فصل الكبرياء . كنت أشعر دوماً بأن الخريف يليق بى ، يجرى دمه فى عروقى ، يخبرنى بأن الحياة مستمرة، لا يجعلنى أشتاق إلى ليلة باردة مثل الصيف ولا إلى دافئة مثل الشتاء أحمل فى كل مرة عند قدومه كل أوراق الخيبات ، وأطلب منه أن يبعثرها دون رحمة ...

وطلبت منه ليلتها بأن يضيعنا فنلتقى حيث لا يوجد شىء سوى الأشجار ...

شعرت بألم شديد عند الفجر فطوال الليل وأنا جالس فى شرفتى أستنشق الخريف ، وطوال اليوم لم أتناول الطعام ولا الدواء ، وطوال الصيف لم أجد الهدوء ...

أكلت شيئاً بسيطا وتناولت الدواء وفى نيتى عدم الذهاب إلى الأكاديمية ، واستسلمت للنوم .

استيقظت فى تمام العاشرة ، لم يكن أحد بالمنزل أخذت حماما سريعا، وبعناء شديد لصقت اللاصقة لنفسى وخرجت من بيتى قاصدا الإسماعيلية ...أعشق تلك المدينة المهيأة دوماً للخريف؛تجمع الدنيا فيها وتبقى بسيطة وجميلة ، فيها كل شىء : مياه مالحة وعذبة، صحراء وزرع ، مفتوحة على مصرعيها للأصدقاء ومغلقة على نفسها للخلوة وللعشاق .

قبل عامين كنت أزورها باستمرار ولأسباب مختلفة ولكنى لم أرها منذ التحاقى بكلية العلوم .

استيقظت على شوق لها فخرجت دون أن أخطط للزيارة وكما الأصدقاء الأوفياء ؛ تغيب عنهم دهرًا وتعود دون تكليف وكأنك سهرت معهم البارحة !

كنت أذهب سابقًا بالقطار العادى الذى يقف بكل المحطات حيث ثلاث جنيهات فقط يمكنوننى من الذهاب والعودة ،وحيث تفاصيل الطريق تبقى محفورة بالبال ،لكن الآن ظهرى وذاكرتى لا يحتملان هزات القطار .

فى الطـرق المملـوءة بالحفـر والمطبـات يصبـح المقعـد فى مقدمـة السـيارة كنـزًا .

جلسـت فى مقدمـة السـيارة عـلى المقعـد بجـوار البـاب وجعلـت زاويـة الكـرسى مسـتقيمة ، وانتظـرت حتـى يكتمـل عـدد الـركاب ، وفى نيتـى أن أدفـع ثمـن المقعـد الفـارغ الـذى بينـى وبـين السـائق كى أتمكـن مـن الجلـوس بطريقـة لا تـؤلم ظهـرى . وجـاءت مـع الخريـف.. حيـث نجـد كل شىء ، ونفقـد كل شىء ...لم أكـن أعـرف أيـن تسـكن ، كـما لم أكـن أعـرف عمرهـا ؛ لذلـك كنـت غـير متأكـد مـن أنهـا سـتأتى لتركـب معنـا. كانـت ترتـدى فسـتانًا أزرق مـوشىً بالفـل ، وتحمـل حقيبـة

بيضاء ، وترتدى نظارة رمادية ...

سـألتْ أحـد السـائقين بالموقـف ، وأقبلـت. جـاءت تكافئنـى عـلى مـا فعلتـه بالأمـس ، وتزيـد مـن دهشـتى ، وترتقـى بتهكمهـا إلى مرتبـة لم أشـاهدها إلا فى خيـالى ...

ابتسـمت ، ووقفـت بجـوار البـاب وأمـام فرحتـى . لم أنتظـر حتـى تسـأل إذا كان بإمكانهـا أن تركـب بجـوارى ضغطـت عـلى يـدى وتحركـت إلى المقعـد بجـوار السـائق

فتحـت البـاب وأعطتنـى حقيبتهـا وأعطيتهـا يـدى ، صعـدت. كان عطرهـا مدهشـا لم أستنشـقه مـن قبـل ..

قالت : ما رأيك بهذه المفاجئة ؟! جميلة ... أليس كذلك ؟

قلـت وأنـا أعطيهـا الحقيبـة الجميلـة : جميلـة مثلـك وعظيمـة بقـدر انتظـارى إياهـا ...

وبدون أن تفارقها الإبتسامة سألتنى : هل تسكن فى الإسماعيلية ؟
لا . أحبها فقط ... أزورها بين حين وآخر . وأنت ؟
قالت : أنا ذاهبة لزيارة عمتى اليوم خطوبة ابنتها وسأعود فى الصباح .
خلعت نظارتها الشمسية وأخذتنى فجأة إلى حوار لم أتوقعه قالت: كانت الجامعة تموج بالمظاهرات فى العام الماضى وفى كل يوم تحدث اشتباكات بين قوات الأمن والطلاب هل لك نشاط سياسى ؟ إلى أى فكر تنتمى ؟
تعجبت من سؤالها ، لكننى لم أرد السؤال بسؤال
قلت لها : لا . لم تكن لى علاقة بالطرفين فأنا أراهم نفس العملة فإن كان أحدهم يتعامل بوجهة والآخر بالثانية فإن العملة نفسها لا تشترى سوى الضجر ، وإن المحصلة فرقة وشتات وتخوين .
ماذا عنكِ ؟
قالت : لا أشغل رأسى بتلك الأمور . عندما ندخل فى الدراسة أكثر سترى كم أكون مشغولة
الله يعينك . كان شرحك بسيطا ومفهومًا ... تحياتى
ربى يخليك . أحقا فهمت ؟
بكل تأكيد .
ابتسمت وقالت : أجلس فى النقابة مرتين من كل أسبوع يمكنك أن تأتى إذًا أردت أن أشرح لك شيئاً فى الكيمياء أوالرياضيات ، وهذا لك فقط ..
جاء السائق بعد أن اكتمل العدد يخبرنا بأن الأجرة قد زادت

بسـبب الزيـادة فى أسـعار الوقـود والزيـوت ؛ وانهـال النـاس عليـه ليكـون ضحيـة لضجـر الـركاب جميعًـا !!

وبعد خمس دقائق تحركنا بعد أن استسلم الناس .

قالـت : هـذه أول زيـارة لى إلى الإسـماعيلية . مـن يـوم أن انتقلـت عمتـى إلى العيـش هنـاك لا أراهـا سـوى فى الأعيـاد والمناسـبات، وأفتقـد ابنـة عمتـى كثـيراً فلقـد تربينـا معـا وتعلقنـا ببعضنـا كثـيراً وكان صعبـا عـلى انتقالهـم للعيـش بعيـدا عنـا .

وأنا كنت أفتقد القطار الذى يسير موازيًا لنا ، وأخاف منه.

سألتها : هل سافرت بالقطار من قبل ؟

قالـت : أبـدًا . لكـن أتمنـى أن أسـافر بالقطـار مسـتقبلا ،قـد أجربـه غـدًا فى طريـق العـودة ...

لم أنـس مواعيـد القطـارات ولا المحطـات التـى يتوقـف عندهـا كل قطـار؛ كنـت أعلـم أن هنـاك قطـارًا سـيأتى بعـد نصـف سـاعة إلى المحطـة القادمـة ، ويتوقـف فى كل المحطـات قبـل أن يصـل .

قلت للسائق : تفضل أجرتك

قال : ما زال الطريق طويلاً .

نصل على خير إن شاء الله وبعدها آخذ الاجرة .

قلت له : لكننا سننزل هنا !

والتفت إليها وقلت : ونكمل بالقطار ...

فـرح السـائق كثـيراً بمقعديـن فارغـين مدفوعـى الأجـر يسـتطيع أن يضاعـف أجرتهـما ، وهـى لم تعارضنـى

فقط قالت : أخشى أن أتأخر ، وعمتى تنتظر منى المساعدة

قلت كى أقلل من توترها : لن تتأخرى ، كماأننى أريد أن أنال شرف اصطحابك فى أول رحلة لكِ بالقطار ...

ابتسمت قائلة : الشرف لى يا سيدى ، لكن متى سيصل القطار القادم ؟

سيصل بعد نصف ساعة .

كنا قد وصلنا إلى المحطة التى سيتوقف عندها القطار ونحتاج إلى المشى خمس دقائق لنصل إلى الناحية الأخرى من الطريق ... اشتريت زجاجة مياه ومشروبًا ، وجلسنا على الرصيف ننتظر القطار . مجددًا ذهبت بى إلى السياسة مثل الجميع !!ففى تلك الأيام كان كل من يتعامل معك يريد أن يعرف ميولك وانتماءك، ولا يصدقك إن قلت له بأنك لا تنتمى إلى المؤيدين ولا إلى المعارضين ، حتى ولوكان مثلك وذلك لشدة التخوين والتشويه التى نعيشها ...

قالت : لكنك بكل تأكيد تتوق إلى الحرية . أليس كذلك ؟

طبعًا . الحرية يا سيدتى ظلمت كثيراً سجنت لعقود مثل أصحاب الكهف حتى ضاعت ملامحها وضاع الزمان منها ولم نعد نعرف عنها سوى سيرتها الطيبة . وافتقدناها حتى تغيرت المعايير فتعلمنا الخوف بدلاً من الاحترام ، وعندما سقط الخوف على يد الثورة علم السجان أن لا شىء وراء الخوف سوى الفوضى؛فأطلق سراح الحرية لتصدم الضحية مع الضحية ، وهويعلم بأن الحرية ستستوحش الطريق ، ستكون غريبة وتحن إلى السجان الذى سينظر إليها بعينين كاذبتين ولسان منافق

ثـم يـدور إلى النـاس ويقـول : انظـروا إلى الحريـة !! إنهـا فـوضى !! إنهـا مؤامـرة !! ويَسـقط علينـا سـيل مـن مصطلحـات كاذبـة . أليـس كذلـك ؟ أليسـت مصطلحـات التديـن والوطنيـة فى بلادنـا مجـرد شـعارات ليـزداد الفقـير فقـرًا وهويظـن بأنـه يجاهـد ، ويجـد اللـص زيًـا وقـورًا ؟!

قالـت : بـكل تأكيـد . لقـد تحدثـت بمـا فى داخـلى ، ولمسـت بكلماتـك كل الوجـع .

قلـت لهـا : أعلـم أن الحديـث عـن السياسـة ظاهـرة طبيبعيـة فى هـذا الوقـت لكـن أتعجـب مـن إصرارك عليهـا كأن لا شىء نتحـدث فيـه سـوى السياسـة !

قالـت : معـذرة فقـد كان أخـى أحـد شـهداء ثـورة يناير !!وقالـت بعـد ذلـك شـيئاً لم أسـمعه ...

كنـت أريـد أخذهـا للقطـار لإنهـاء عقـدى ، لعقـد صلـح مـع الذاكـرة، أردت اصطحابهـا كى أقبـض عـلى يدهـا كلـما يضربنـى الحنـين وأقـول: « دعينـى أتحـدى دمـوع القلـب وأجـزم أن هنـاك ثمـة أشـياء تسـتوجب العشـق مثـل عينيـكِ « فـإذ بهـا تشـير إلى أصـدق الأوجـاع وأطهرهـا ، إلى الياسـمين إلى الأشـجار التـى تتحـدى البـوار ، إلى الـروح التـى تتحـدى الخـواء ، إلى الصـدر العـارى الـذى يقابـل الجـلاد صابـرًا إلى الذاهبـين إلى حتفهـم مكابريـن وإلى ركـن صغـير بداخلنـا بقـى طاهـرًا ، إلى الذيـن لوعـادوا لسـخروا منـا وطلبـوا المـوت ليرتاحـوا مـن الغوغـاء .

جاء القطار ... تعالى تعالى تعالى

تعالى لنركب . تعالى نقاوم عصرا آخذًا فى الدوران إن البحر عميق جداً ، إن الموج شديد جداً ، وأشرعتى هلكت ، ولا تقبلنى شطآن . قبضت على يدها وعلى جرحى وركبنا القطار ...

ضاع ألم ظهرى ،وهرب الخوف من القطار وبقيت وحدها تشغل تفكيرى . لحسن الحظ كان القطار فارغا ؛ جلسنا بجاور النافذة وجها لوجه وأوراقنا مكشوفة ، وعيوننا مفضوحة. يحتاج القطار العادى إلى ثلاث ساعات قبل أن يصل إلى الإسماعيلية كانوا بالنسبة لى رحلة كافية. على إمتداد هذا الطريق أناس جاءوا من أماكن عدة إما هربًا من الفقر وضيق الحال ، أو من مشاكل عائلية تحدث لأتفه الأسباب وتتحول بعد فترة إلى همنا الوحيد وشغلنا الشاغل الذى ننام عليه ونفيق ، وأما طَموح قرر أن يشق طريقه ويؤسس لنفسه حياة ...

فى النهاية هم أناس اختاروا العزلة ، واختارهم الصدق. كنت أعشق، هذا الطريق وأطمئن له ، وأحلم بأن أشترى يوما قطعة أرض على هذا الطريق أزرعها وأسكن فيها .

من وقت ركبنا لم تنظر لى فقط كانت تشاهد الشرود وأنا كنت أشاهدها ...

قلت لها : رحم الله شهداءنا وألحقنا بهم فى الجنة

ردت بابتسامة كأنها تقول : أرجوك لا تقل كلاما مثلهم، ابق صاماتًا مثلى وأنا سأفهمك .

دخلنا حدود الإسماعيلية ، واقتحمتنا حدائق البرتقال وبقيت لنا ساعة قبل أن يصل القطار إلى المدينة .

كانت معجبة جداً بذلك الطريق الذى ترتاده لأول مرة وكانت مفتونة بحدائق البرتقال .

بين حدائق البرتقال المتداخلة كان رجل وامرأة يجلسان أمام كوخ صغير وأمامهم بضعة أقفاص مملوءة بالبرتقال. لاحظنا المنظر وأدهشنا لنلتفت إلى بعضنا باسمين . قلت لها : أتمنى أن أتوه معك ذات يوم فى حديقة برتقال ...

توقف القطار الذى كان يسير ببطء بعد دقيقتين من الرجل والمرأة مما يعنى أن عشر دقائق يمكنوننا من العودة إليهم أخذتها من يدها ونزلنا وهى تسألنى إلى أين ؟

قلت لها : إلى حديقة البرتقال !!

قالت : لنتوه ؟

قلت : وبعدها نلتقى ...

مشينا صامتين ، ولا أعرف من أين جاءنى طيف جنونى الأول فرحت أعقد المقارانات ،استدعيت نفس الكلام لموقف متطابق حين مشينا معًا أول مرة وظلت صامتة ، فقلت لها : إن لم ترغبى بوجودنا معًا؛ أغادر ... أغادر الآن ؟

أجابت الأولى بصمت واحتضنت يدى وزادت الثانية عليه (أنا سعيدة ومطمئنة معك) .

قالت : فى أى حديقة سنتوه ؟

قلت : عند الرجل والمرأة

قالت : وهل تعرفهم ؟!

قلت : لا أعرفهم . لكن يكفى أن يزورهم أحد وبعدها هم

سيختلقون قرابة به ؛ لذلك أنا وصديقتى الجميلة مرحب بنا دون أن نسأل عن هويتنا ، وسوف يحتفون بنا حد اشتياقهم إلى زائر وحد لهفتهم على سؤال قريب ...

وأمام دهشتها قلت : لعن الله من يصوبون تجاه احتياجنا من يعلمون ضعفنا ويدوسون عليه !!

ضحكت وقالت : سامحنا الله نفعل نفس الشيء ، ودخلنا فى نوبة ضحك .

وقبل أن نصل إليهم مباشرة قلت لها عامليها كأنها أمك . ولا أقول ذلك استكمالا لسياستنا الاستغلالية، وضحكنا مجددًا ....

سلمت على الرجل واستقبلنى بنظرة رجل يبحث عن أهل واحتضنتها زوجته وقبلتها بشوق أم ...

قلت له : اسمى عمر ، وهذه ابنة عمى وزوجتى المستقبلية كنا فى طريقنا إلى المدينة ، أعجبتها حدائق البرتقال فلبيت لها رغبتها ونزلنا عليكم ضيوفًا ...

قال : أهلا وسهلا بكم يا ولدى – مكانكم ومطرحكم

قالت زوجته : نحن لم نتناول وجبة الغداء بعد

سأقوم بتجهيز الطعام ونأكل معا .

كانت غرفتهم مبنية بالطوب الأحمر ومعرشة بألواح الخشب وبجوار الغرفة صاج مرفوع على قائمين من الطوب يستخدم فى شواء السمك ، وبالفعل كان السمك معدًا للشواء ...

قامت ، وأشرت لصديقتى بأن تساعدها . وضعت المرأة يدها على كتفها وقالت : استريحى أنت يا ابنتى وأنا أعد لكم الطعام

لـن يسـتغرق وقتـا طويـلاً
قالت لها : أجلس بجوارك إذًا .
لم يسـألنى الرجـل عـن هويتنـا ، وسريعـا أخـذ يحـكى عـن نفسـه أخـبرنى بأنـه فى الأصـل مـن محافظـة الشرقيـه كان الابـن الوحيـد لرجـل وامـرأة توفيـا فى ريعـان شـبابهما ، وبعـد ذلـك ذهـب إلى كفالـة أعمامـه الذيـن لم يراعـوا اللـه فى حقـه ، كان يعمـل وينفـق عـلى دراسـته التـى لم تكتمـل برغـم الأمـلاك الطائلـة التـى تركهـا لـه والـداه !!
تـزوج فى عمـر صغـير ببيـت أبيـه ثـم هاجـر إلى مدينـة الإسـماعيلية بعدمـا ضيـق عليـه أعمامـه ، ولديـه بنتـين إحداهـن متزوجـه تسـكن فى الغردقـة مـع زوجهـا الـذى يعمـل طاهيًـا في أحـد الفنـادق السـياحية والأخـرى مسـافرة مـع زوجهـا الـذى يعمـل بالمملكـة العربيـة السـعودية.
قـال : إننـا عـلى فـراق دائـم يـا ولـدى ، والـذى يهـون علينـا مصائـب الأيـام وجـود امـرأة صابـرة تحبـك مـن قلبهـا وتدفـع عنـك كل الهموم وتكـون أمـك وأخـاك وصديقـك ...
أشـار إلى زوجتـه وقـال : لقـد تحملـت معـى الكثـير والكثـير . يـا ولـدى إن رمـز الأنثـى هوالعطـاء أمًـا وبنتًـا وأختًـا وزوجـة فى كل الأحـوال هـى تعطـى إن أحبـت حقًـا ، وإن امـرأة لا تفكـر سـوى براحتهـا وسـعادتها تكـون الحيـاة معهـا مؤامـرة عـلى نفسـك ... وإن وجـدت امـرأة حقـا ، ولم تحافـظ عليهـا تظـل طـوال عمـرك والنـدم يطـارك ، وتبتـلى بامـرأة أنانيـة ... حافـظ عـلى ابنـة عمـك ... إنهـا

تحبـك ، وأنـت أيضـاً تحبهـا !!

جلسـت أمـام كلماتـه مندهشـا ، وزوجتـه تمطرهـا بأحاديـث لم أسـمعها. لكـن كنـت مطمئنًـا لأن امـرأة كهـذه لا يمكنهـا أن تقـول إلا خـيرًا ...

قـال : لنـا بيـت فى أطـراف المدينـة مكـون مـن أربعـة طوابـق الطابـق الأول أقـوم بتأجـيره كمحـلات ، والثـانى أسـكن في والثالـث والرابـع لبنـاتى، لكنهـما عـلى سـفر مسـتمر ...

لقـد أكرمنـى اللـه وكافـأنى عـلى اجتهـادى وصـبرى عـلى أذى أعمامـى الذيـن لم اقاطعهـم برغـم كل مـا حـدث، لقـد بـدأت بعمـل المعـمار ثـم بتجـارة الأسـماك ، ثـم اشـتريت قطعـة الجنـة هـذه وأصبحـت قطعـة منـى ، نقـضى اليـوم كلـه هنـا ولا نعـود إلا للنـوم فقـط .

قلت له : زادك الله مالا وكرمًا ، حديقتك جميلة تبارك الله

قال : تأتى وقتما تشاء يا ولدى

وأكمـل قائـلا : نعـم أقـضى وقتـى كلـه مـع زوجتـى ، وهـذا سـاعدنا كثـيراً فى أن نكـون أصدقـاء لكـن وإن اختلفـت الظـروف يبقـى المبـدأ نفسـه وهـوأن المـرأة التـى لا تسـتطيع أن ترمـى بأوجاعـك وانكسـاراتك فى حجرهـا دون حـرج ؛ هـى امـرأة لا تصلـح لـك زوجـة لأنـك حـين ذلـك

تصبح بلا مأوى ، والمرأة مأوى يا ولدى ...

قلـت لـه : جاءتـك العزلـة حاملـة معهـا الصـدق ، والصـبر والحكمـة.

قـال : والحـب !!

نعـم يـا عمـر والحـب أيضـاً . فى هـذا العـصر السريـع جـداً المخيـف

جداً نعيش كثيراً دون أن نحب : نلبى احتياجات الأسرة وننسى أن نحبها ، ننتقل بين عمل وآخر وننسى أن نحب العمل ، أنا أحببت كل شيء حتى أذى أعمامى وحتى الحجارة التى كنت أحملها فوق كتفى وأصعد بها للطابق العاشر وأعلى . بينما كنت أبحث عن الرزق يا عمر تعلمت أن ينبع الحب من داخلى وتعلمت أن لا أقاوم الحب أيضاً .أخذته إلى المكان الذى ندور حوله كثيراً...

هل كانت زوجتك أول من أحببت ؟ وتمنيت أن يقول لا !

ابتسم ساخرًا ، وقال : أنت ما زلت تسكن نصف الكوب الفارغ، لكن على كل حال سأجيبك ...

أحببت جارتى . كنت شابًا مسلوب التقدير فى مجتمع يزن الناس بميزان المال ، وكانت هى الأجمل فى بلدتنا .لم أعرف لها طريقا سوى دخول البيت من بابه ، رفضونى وعدت مرارًا ولا شيء يتغير بعد ذلك كنا نتقابل خارج البلدة كلما سنحت لنا الظروف أونتحدث سريعًا إذًا تقابلنا فى السوق .خطبها إخوتها عنوة إلى جارهم الذى يعمل فى إيطاليا طمعاً فى المال وتوفير فرص عمل لهم بجوار أختهم التى كانو يظنون بأنها ستعيش فى إيطاليا ! لم أقابلها بعد خطوبتها التى استمرت عامين ، وخلال تلك الفترة كنت أعمل فى الليل والنهار دون راحة ، تحسنت أحوالى ، وخطبت وتزوجت ..

وفى اليوم الحناء جاءت أمام الجميع هنأتنى وأعطتنى عشرين جنيهًا كنت قد أعطيتهم إياها فى آخر مرة تقابلنا فيها وأخبرتنى بأنها تريد شراء فستانًا أعجبها ، لحقها أحد إخوتها ضربها بعنف

وأخذها إلى البيت وهو يجرها من شعرها ويوجه لها سيلا من السب والقذف . تزوجت بعدى بثلاثة شهور ، لكن الحال لم يكن كما رسموا فزوجها لم يحمل من أوروبا سوى النبيذ المعتق !! رجع مفلسًا ، ولا يمكنه العودة ..عاشت معه حياة بائسة ، كنت أعطيها نقودًا كلما نزلت إلى البلدة لأنها أصبحت بلا إخوة وبشبه زوج ... لم أذهب إلى البلدة منذ أن ماتت فى حادث سير قبل عامين .

لا أحد يستطيع شواء السمك بتلك الجودة مثلى ...

جاء صوت زوجته وهى تحمل السمك متجهة إلينا منقذا لى، وجاءت سيدة المعمل الجميلة تحمل العيش الشمسى وطبق الخضار .

قال : لقد تركت تجارة الأسماك منذ فترة كبيرة ، لكن ما زال كبار التجار يبعثون إلى بأفضل الأنواع كهدايا لذلك أراهن بأنك لن تتناول مثله والأهم أنه معد بواسطة أمهر وأجمل امرأة فى الدنيا ...

قلت له : أدام الله كرمك وسيرتك الحسنة

جلستْ بجوارى وعلى وجهها ابتسامة عشقتها ...

كان الطعام جميلا بقدر المشاركة وإكرام الضيف ، كان عطرها أقرب إلى من أى وقت مضى وهى تطعمني بيدها ، كانت المائدة مطمئنة ...

قلت لها : ستكون المقارنة صعبة فى المستقبل إذًا صنعت لى سمكا... وأجابت متؤامرة مع كذبتى : سأجئ إلى هنا وأتعلم

قبـل أن أصنعـه لـك ...
قلت للمرأة : سلمت يداك ، وللرجل : أدام الله كرمك
لن أنسى هذا اليوم أبدًا
قلت للرجل : اسمح لى أن أعزمها على برتقال من عندك
قال : تفضل يا ولدى - المكان مكانك -
وفى تلـك اللحظـة جـاء التاجـر ليأخـذ أقفـاص البرتقـال، كنـا فى بدايـة الموسـم لذلـك لم يجمعـوا سـوى بضعـة أقفـاص مـن البرتقـال الأخـضر ولم يحتاجـوا إلى عمالـة . أشـعلت المـرأة الحطـب لعمـل الشـاى ... وأنـا هربـت إلى الحديقـة كى لا أضطـر إلى حمـل الأقفـاص معـه فيظهـر ألم ظهـرى .
جـو خريفـى : شـمس ، وغيـم ، وجـداول ، وأشـجار ،وأريـد أن أتقمـص دور البطـل « فى عصمـة قبلـة لم تحـدث « لـكى أصحـح الأوضـاع ...
أمسكت يدها ومشينا بين الأشجار حتى غبنا عن الأنظار
قلـت لهـا : لقـد لبـى الخريـف طلبـى ؛ فلقـد تمنيـت عنـد قدومـه أن يبعثرنـا حيـث لا يوجـد شىء سـوى الأشـجار !
قالـت : لقـد تآمـر الخريـف معـك عـلى وحقـق طلبـك دون أن أعـرف لمـاذا أنـا معـك الآن !
أغضبنـى سـؤالها المنطقـى ، ورفضـت أن اعـترف بحقهـا فى سـؤال كهـذا !
قلـت لهـا : أنـا معـك لتحقيـق أحلامـك ؛ فمنـذ قليـل ركبـت القطـار لأول مـرة ، وقبـل ذلـك تحدثـت عـن نفسـك لأول مـرة وأنـت الآن فى حديقـة البرتقـال التـى أعجبتـك ...

قالت : ولكن ...

قاطعتها : لا تسألى الأسماك عن سبب وجودها فى الماء فهذا يحرجه ويقتله ، وحتى لا يسألك الغيم عن أمطاره التى تسقط عليك يا شجرة الصبار .لم أنتبه لوقاحة كلماتى ؛ أغضبنى سؤالها على الرغم من أنها كانت محقة ؛لكنى حملتها ذنب قلقى بسبب عيناها ، حتى أننى حاسبتها على ألم ظهرى الذى لم أخبرها عنه ! تحركت إلى الناحية الأخرى من الشجرة وأنا ألوم نفسى على ما قلته ، وهى سندت ظهرها إلى الشجرة ولم تتحدث. رجعت إليها كى أصحح الأوضاع . فإذا بها تبكى وقعت عيناها فى الأرض.. وضعت يدا على رأسها ، وبالأخرى ضممتها إلى ، وضعت رأسها على صدرى وأنا أقول :

أنا معك الآن لأنى أحبك ... أنت هنا الآن لأن البرتقال فقد رائحته الذكية ، ويريدك أن تقتربى كى يستعيد أمجاده ... فستانك هنا ليتباهى الخريف ... عيناكِ تبكيان على صدرى لينتهى كل الجدب بداخلى ... ويداك هنا لتطوق ظهرى المكسور ، وتزيل عنه الألم ... نظرتْ إلى متأسفة ، وانهمرت فى البكاء .

وضعت رأسها فوق كتفى وطوقت خاصرتها وضممتها إلى أكثر ، طوقتنى هى الأخرى وهى تهمس بصوت منخفض أرعب صداه كل الجروح ففرت هاربة ، وانتفض له القلب وفتح جداوله للحياة .. أحبك ..

خرجتْ من العناق هادئة ، ويدى تمسح لها الدموع. قالت : لم تخبرنى بحادثة ظهرك ؟!

قلت لها : حدث ذلك بعد أن كنا فى المعمل ، ولم تأتى مناسبة كى أحكى لكِ ، وشرحت لها الوضع أمام غضبها من إهمالى وركوبى للقطار وجلوسى على الأرض .

قالت : ستخضع للجراحة فى أقرب وقت ... اتفقنا ؟

قلت : بكل تأكيد .

فقط أريد أن تسير دراستى بشكل طبيعى وبعدها سأخضع للجراحة مباشرة .

لكننا إلتقينا قبل أن نتوه !!

قالت : تعالَ لنتوه وقلبنا مطمئن للقيا ...

ضحكنا ، وقبل أن ندخل فى الحديقة أكثر جاء صوت المرأة

(الشاى يا أستاذ عمر)

خرجت فوجدت التاجر يأكل ، ولمحتْ المرأة تعجبى فقالت باسمة: تعودنا أن نصنع طعامًا إضافيًا حتى يرزقنا الله بالزائرين.

قلت : زادكم الله جمالا وكرمًا ودخلت ...

أعطيتها الشاى ، وضعته على الأرض وهمت تساعدنى على الجلوس

ضحكت ، وقلت لها : يمكننى فعل هذا الموضوع بسيط

قلت لها : من أى جمال جاءوا ؟

قالت : لم أصادف مثلهم طوال حياتى ، لقد تحدثتْ عنك بكل خير رغم أنها لا تعرفك ، وأوصتنى بأن أكون زوجة صالحة ، ولم تتدخل كعادة النساء فى شؤونى ولوبمقدار أنملة

قلت : إن أمثال هؤلاء لا يقولون إلا الطيب فقط

قالت : لكننا رغم ذلك كذبنا عليهم ، وأخبرناهم بأننا أبناء عم،

وبأننا سنتزوج ...

قلت : عاقبنى الله على كذبتى ، وجعلها تتحقق .

قلت لها : بالنسبة للشاى أعرف طعمه جيدًا ، وإذ بها تتذوقه وتصرخ (الله الله جميل جداً) هل تناولت مثله قبل ذلك يا عمر ؟ من صنعه لك ؟

قلت : بل أصنعه بنفسى فوق سطح بيتى .أضع الرمال محاطة بقطع الطوب ، وأشعل فوقها الخشب وأصنع الشاى والقهوة فى إناء من الصاج

صرخت مجددا « أحب ذلك « متى سأكون ضيفتك ؟

تمشينا فى الحديقة ، وهى ممسكة بذراعى قلت لها : فى منحدرات القيم فى لحظة اختيار مالا يمثلنا ولكن ما فرضه التيه علينا؛ نختار الانفصام ، فالعلاقة العاطفية التى تجمع بين الحاكم والمحكوم فى عالمنا الثالث تجعل المواطن يتآمر على نفسه ويغض الطرف عن مستوى المعيشة المتدنى لمجرد أن الحاكم من طائفته وهواه، وكل شيء بعد ذلك بالنسبة إليه غوغاء ،تصبح الأخبار موسيقى تصلح للرقص فى حلقات الدراويش وتصبح المراشقات السياسية مرارًا لا يحتمله القلب .. أعلم الآن لماذا قال نزار فى ديوانه (لا غالب إلا الحب) : (لا غالب إلا الفكر) فالفكر مهما اختلف فهو يحمل فى طياته احتراما ، ويحمل شعارا خالدا يقول (لا غالب إلا الشعب).

لا بد للفكر أن يصل إلى أن المواطن هو الأساس وكل ما تبقى هو خادم له ... وأما فى دنيا الانفصام التى نعيشها نجد الحكام

المتغيرين جَلدنا يفعلون كل ما أنكروه على سابقيهم !! وقفت أمامى، وقالت : كيف لك بكل هذا ؟! خطفتنى فى يومين ، مشيت معك وكأن الدنيا كلها تتآمر معك علي ،فهمت تفاصيل أناس لاتعرفهم ، اخترت الوقت المثالى لنزولنا من القطار ولقتل الصمت الذى بقى بداخلى طويلاً ...

وتوارت خلف ضحكتها وهى تقول : من أنت يا رجل ؟

لم تكن تريد إغضابى ثانية ولذلك ضحكتْ

ولكن كنت أعلم أن ثمة أسئلة تدور فى رأسها : من هذا الرجل الذى كسرت على يديه سنوات الصمت ؟ أى جنون أصابنى كى أجلس مع طالب لدى ، وفى حديقة أناس لا أعرفهم ، وأقول له أحبك ؟! وأعرف أيضاً أن الاطمئنان الذى شعرتْ به يرد على قلقها.. وأعرف أن كلامى الذى يجيد الوصول إلى أعماقها قد كان يضرب كل التكاليف دون رحمة .

ولكننى أشعلت أعصابى أكثر من المرة الأولى ، ولكن بقبلة استمرت ثلاثة أعوام بقدر الألم، واستمرت عامين بقدر الحنين ، واستمرت ألف عام بقدر اشتهائى شفتيها ، واستمرت حتى ضاع الحساب منى بقدر ما طوقتنى، كأننى قبلت بركانًا ، وياسمينًا، ووردًا ، وعصفورة ، وسيفًا . كأننى قبلتها حلمًا ، وقرأت ديوان الأنوثة حرفا حرفا ، وأخذت من شفتيها زادى .

عادت عيناها بعد رحلة داخل الجفنين قررت خلالها أن ترى بشفتيها ، وعيناها العائدة قبلة أخرى سرقت منها ألف حديقة، وقمرًا ، وبحرًا .

جلستْ وظهرها على صدرى ، ورأسها على كتفى ودقات قلبها نافرة ...

قبلت كفها ، وطوقت خاصرتها ، وأنا أقول : سيكون هذا العطر لى، وعلى الرغم من أننى لا أعرف أسماء العطور حتى التى أستخدمها؛ سأتعرف عليه ... اتفقنا ؟

قالت وهى تغمض عينيها : اتفقنا أن يكون كل شيء لك .

وفتحت عينيها وهى تقول : لقد انتظرتك عمرًا وصمتًا !!

سمعنا صوت سيارة التاجر تدور -لا بد أنه أنهى عمله -

قالت : يجب أن نذهب الآن

أومأت لها بالإيجاب ، وأصلحنا من هيأتنا وخرجنا .

قلت للرجل : تعلمت الكثير منك . أشكرك

قال : ربى يسعدك يا ولدى ويوفقك

قلت له : إذًا سمحت لنا ؛ يجب أن نذهب لارتباطنا بحفل زفاف -هل أراك ثانية ؟

أجبت وأنا أعانقه : بكل تأكيد .

تبادلنا أرقام الهواتف ، وسألته عن المواصلات إلى الإسماعيليه ؛ فقال: سيأتى قطار بعد ربع ساعه لكنه لا يتوقف عند هذه المحطة يمكنك استخدام المواصلات حتى البلدة التالية وعندها تستطيع اللحاق بالقطار أو استخدام مواصلة أخرى إلى الإسماعيلية.

غادرنا ، وأنا أحمل ذكرى أغرب يوم عشته فى حياتى، فى الطريق تبادلنا أرقام هواتفنا ،

سألتها : هل تريدين إكمال الرحلة بالقطار ؟

قالت : كما تريد . وصلنا متأخرين عن القطار
قالت متهكمة : لقد خانك القطار
قلت : سأصل قبله . قالت : وهل همك الوصول ؟!
قلت : عندما يتركنى القطار وحيدًا يكون همى الوصول ،
ولقد تأخرت كثيراً قبل أن أتعثر بك ...
وهأنا على أهبة الوصول _ وتتركنى ؟!
قلت : أبدًا ما تركت القطار ،
ولكى أثبت لك صدقى ؛ فإنى قد التقيت بالخريف الذي سافرت لأجله وانتهى مشوارى ، وسأكمل معك مشوارك، قالت وهى تقضم شفتيها مثل الأطفال : هذا كرم أخلاق
قلت : بل هوفيض احتياج إليك .
وصلنا إلى الإسماعيلية مع غروب الشمس ، كان عليها أن تجرى اتصالا لتعلم كيف تصل إلى بيت عمتها ،انتظرتها حتى أتمته
قلت لها : سنلتقى مرة أخرى عند البحر ؛
فأنا أحب كورنيش الإسماعيلية كثيراً ، وأعتقد بأنك ستحبينه أيضاً فعلى بساطته يحمل الكثير من المشاهد الجميلة مياه عذبة ، ومالحة ، وأشجار ، ومراكب نيلية مزينة . قلت لها : هاتفينى عند وصولك ، وغادرت .
رجعت وأنا أقول لنفسى : أن كل شيء بعدنا غوغاء فلماذا تركتها تذهب لعمتها ، ولماذا أنا رجعت ؟!
لماذا لم نقض الليل كعاشقين سرقوا من الزمن سهرة ، وسرقوا من الشوارع خيمة ؟! وأتكأ على المقعد وأراجع نفسى : كان يكفى

ذلك.

فى طريق العودة جلست بجوار النافذة لأسخر من الحنين كان الطريق مظلمًا ، ومن وقت لآخر كانت حافة الحدائق تلمع من نور السيارات ومعها قلبى يتنهد .

لم أنتبه يومها لشىء حولى ولم أرفع عينى من على النافذة ولم أغضب من المذياع الذى كان يضج بأغان هابطة .

جاء صوت هاتفى ليعيدنى إلى رشدى، كانت أمى ضحكت وقلت فى نفسى : اخلعى عنك ثوب قلق الأمهات فإن ابنك المريض الذى يركض قلبك خلفه قد عاش اليوم الأجمل فى حياته ، قد واجه القطار مصابًا وأنتصر ، قد أجرى جراحة ناجحة على يد نزلت من السماء إليه فقط وعاد إليك يحمل الثقافة كلها تعلمها فى يوم واحد. لم تهاتفنى يومها ، ولم أنتظر ذلك ...

فقد كنت من الذين لا يتركون للهاتف حق التصرف فى مشاعرهم فضلا عن مواقع التواصل الاجتماعى . أخذت الدواء ، واستلقيت على السرير ، وبدأ التعب يداهمنى لكن النوم أنقذنى سريعا ، وحملنى إلى اليوم الجميل لكى يبدأ العناق من أول ما تقابلنا ، وتعاد القبلة كثيراً ، وتعتذر لى الأحلام عن تركى للكوابيس طويلاً ، ولكى لا أكذب على الرجل الذى استقبلنا بترحاب كبير .

استيقظت عند الساعة الثانية بعد منتصف الليل ، أشعلت نور الشرفة ، وجلست أتناول كوبًا من الشاى وأنا أذاكر . عند الساعة السادسة صباحًا كنت قد انتهيت من كل المحاضرات التى درستها فى الفترة السابقة قبل أن يأتينى صوتها : صباح

الخـير يـا عمـر
-صباح النور ... كيف كانت ليلتك ؟
-آه يـا عمـر آه ... رأسى سـينفجر ؛ إلى الفجـر ونحـن فى صخـب لقـد جننـا ليلـة أمـس – والآن جميعهـم فى حالـة اغـماء ، وربمـا يفيقـون بعـد عـشرة أعـوام !
-لكنك ما زلت تقاومين النوم ؟
-عـلى الذهـاب إلى الأكاديميـة ؛ فلقـد حصلـت عـلى إذن بالخـروج قبـل منتصـف يـوم أمـس ولا يمكننـى الحصـول عـلى إجـازة اليـوم ...
_ تسـافرين مجـددا دون راحـة ؟!
_ ليس لدى خيار آخر .
_ حسنا . سأتركك الآن كى تستعدى .
وقبل أن أغلق نادتنى : عمر .. ستأتى اليوم ؟
قلت : لست أدرى فظهرى يؤلمنى جداً
_ سلامتك يا عمر . حزينة جداً لأجلك
_ الحمد لله على كل حال .
وأكملـت : نـراكِ عـلى خـير . سـيتحرك قطـار فى تمـام السـابعة إذًا أردت العـودة بالقطـار ...
قالت ضاحكة : سأعمل جاهدة كى ألحق بالقطار.
عنـد السـاعة الثامنـة كنـت قـد تناولـت إفطـارى ، وأخـذت حمامـا، وارتديـت ملابـس خـروج ، وجلسـت فى انتظـار مـا سـيمليه عـلى وجـع ظهـرى ؛ أذهـب إلى الأكاديميـة أم لا ؟
جلسـت فى الشرفـة ومعـى فنجـان شـاى ، وديـوان نـزار « لا غالـب إلا

الحب « ربما كنت أقرأه للمرة العاشرة هاتفتها قبل أن أبدأ فى القراءة : ما زلت ببيت عمتك ؟!

_ يا ربى ! كم الساعة يا عمر ؟

_ الثامنة والنصف

_ يا الله ! يا الله ! بعد أن حدثتك غلبنى النوم ، ولم أستيقظ إلا الآن ... ماذا أفعل ؟ لدى عمل كثير فى المعمل بالإضافة إلى لقاء مهم مع أستاذى المشرف على رسالتى كان يجب على أن أقابله قبل الذهاب إلى الأكاديمية

_ قلت لك لا تتأخرى عن القطار فضحكت ؛ وهأنت الآن تستيقظين مفزوعة على صوته ..

_ عمر ... تمزح وأنا بهذه الحالة !

_ على الرغم من تأخيرك ، وضياع لقائك بأستاذك إلا أننى سعيد جداً بهذا الخبر إنك على مقربة من الحصول على درجة الماجستير أليس كذلك ؟

_ عمر ... لقد أنهيت الماجستير ؛ إنها رسالة الدكتوراة .

دكتوراة ... وبدأ الحساب يتسلل إلى داخلى : إذًا سارت دراستها بشكل سريع فإنها تكبرنى على الأقل بسبعة أعوام !!

لكن ليس فارق العمر مشكلتى ، وإنما شجرة الياسمين هذه التى أصبحت تفوح عطرًا فى كل الميادين ، ففى ميدان الجمال ملكة ، وفى ميدان العلم أستاذة متمكنة وطالبةمجتهدة ، وفى دنيا الأنوثة لم أجد لها مثيلا ؛ ستكون المحافظة عليها صعبة مثل الحفاظ على مخيم محاط بالأعداء ، ويحرسه خونة ...

قلت لها : ماذا ستفعلين ؟

_ سأكمل نومى. وأنت هل ستذهب إلى الأكاديمية ؟

_ لا . بل سأذهب إليكِ

قالت السيدة الجميلة الذكية المتهكمة : عند البحر ؟

ما توقف الاندهاش معها يومًا ، كانت على جرحها دائمة البهجة، وكان الربيع ينبت فى داخلها ويزهر طوال العام فى أعينها ولا عجب؛ فما الربيع إلا عبير ...

تبدلت الحروف وظل المعنى جميلا ، لذلك كانت ترتدى فساتين الربيع وتثير إعجاب الخريف ...

قلت لها : لا تنسى أن تهاتفى أستاذك

_ بالتأكيد سأفعل .

عمر : ديوان نزار الذى حدثتنى عنه أمس ... هل معك ؟

_ نعم . كنت سأقرأه لك الآن ...

_ حقا ! إذًا أحضره لى معك

_ هل تقرأين ؟

_ وهل أفعل شيئاً سوى القراءة _ حسنا سأحضره .

حاولت أن أرتدى قميصًا من قائمة المشتريات الجديدة

وفى النهاية خرجت بالقميص الأبيض ، وأخذت معى ديوان « لا غالب إلا الحب « وديوان « الرسم بالكلمات « . فى الطريق تذكرت كلام الرجل ، ووقفت بالأخص عند كلمته « ننسى أن نحب « وقلت لنفسى : حقا ؛ فالحب هوالذى أخرجنى إلى سفر طويل رغم مرضى ، وهوالذى وجد لى مبررا لعدم الذهاب إلى الأكاديمية .

كنت أحفظ المدينة شارعًا شارعًا ؛ وصفت لى المكان وذهبت إليها. كانت واقفة على الرصيف ، وكعادة فساتينها التى تبهرنى كانت ترتدى فستانًا يموج بالزركشات حتى أنك لا تعلم بداية زخرفة من نهاية أخرى .

سلمت عليها ، وقبلت يدها ، وقلت : لم أكن أعلم أن حقيبتك الصغيرة تلك تحتوى على أجمل الأزياء ...

ضحكت ، وقالت : فقط اشترتيه بالأمس . نزلت مع عمتى لشراء بعض الأغراض ، وكان معروضًا فى مقدمة محل أعجبنى فاشتريته، وللعلم كنت أشعر بأنه سيعجبك أيضاً ولذلك لم أتردد ...

قلت لها : حفظ الله هذا الذوق الرفيع

قالت مبتسمة وهى تمسك الفستان من جانبيه : شكراً جزيلا سيدى الوسيم

كانت جنة . قلت لها : أنت اليوم بصحبة مرشد سياحى ماهر سوف يقدم لك أجمل نزهة . وبالفعل كنت أعرف كل المطاعم والمقاهى ، والحدائق ، والشوارع ، والشواطئ التى تسمح بقليل من الخصوصية ...

قالت : اتفقنا أن أسلم كل شىء إليك

جاءت سيارة أجرة . ركبنا إلى حديقة كنت أجلس فيها كثيراً ، وأعرف لون مقاعدها ، وأماكن الجداول والأزهار وأعرف الأشجار الكثيفة التى يتسابق العشاق إليها ، وأعرف الرجل الماهر الذى يعد العصائر التى لا مثيل لها فى دكان بجوار الحديقة .

قبل أن ندخل إلى الحديقة ذهبت لأشترى عصير البرتقال، قلت

وأنا أصعد سلم الدكان : أما زلت تضع المسحوق على عصير البرتقال وتزعم بأنه طبيعى مائة بالمئة
يا عم رشيد ؟!
_ عمر !!! يا الله لقد قلت بأنك هاجرت
قلت له : وأنا أتعجب من كونك لا تزال على قيد الحياة ...
عانقته ونحن نضحك ، وهو يضربنى على ظهرى ويقول : أين أيامكم يا ولدى ؟ وأين الصحبة الجميلة ؟
تحملت الضربات ولم أخبره بشىء كى لا يحزن ،
قال : لم أر أحدًا منهم منذ زمن طويل ...
_ أين هم ؟ وكيف حالك ؟ ولم هذا الغياب الطويل ؟
قلت له : حال الدنيا يا عم رشيد . أصبحت مشغولا بالدراسة ، حتى أصدقائى لا أعرف عنهم شيئاً مثلك .
كان الأصدقاء الذين يتحدث عنهم العم رشيد مجموعة كبيرة تتخطى الأربعين شابًا وفتاة كانوا كلهم من مدينة الإسماعيلية، وفى نفس المرحلة الدراسية ، تجمعهم نفس المدرسة ، ونفس الدروس الخصوصية -كانوا عائلة- تعرفت على بعضهم بأحد الشواطئ وبعدها أصبحت أحد أفراد هذه العائلة ، وأقرب واحد للجميع كعادة الغريب !!
كنا نلتقى بتلك الحديقة ولا نمر سوى ونحن نحمل العصير من عند هذا الرجل الطيب ، ولكننا تفرقنا منذ زمن ولم أعدأعرف عنهم شيئاً ولا أحمل فى هاتفى أرقامهم .
قلت له : الحمد لله أنك بخير يا عم رشيد

_ والله كانت أيامًا جميلة ، إن أجمل ما فى الدنيا الأصدقاء
اجلس يا عمر ... عصير البرتقال أليس كذلك ؟
بكل تأكيد . لكن علبتين ؛ لى ولصديقتى الواقفة بجوار الحديقة...
_ لماذا لم تأتِ بها إلى هنا ؟ أم أنك تخاف أن تتعلق بى وتتركك؟!
ضحكنا ، وتذكرت المواقف السابقة عندما كان العم رشيد الذى يقترب من السبعين يمزح مع صديقاتنا ويتفاخر بأنه لا يزال يذهب إلى صالة الألعاب الرياضية .
لم أفكر أن أدفع ثمن البرتقال كى لا تنهال علي كل أنواع السب ... قلت له : سأعود إليك عندما أخرج
_ سأنتظرك . أخذت رقم هاتفه وذهبت. كان طاقم العمل فى الحديقة قد تغير ، وارتفع ثمن التذكرة إلى الضعف مثل كل شىء سألت فرد الأمن الذى يتجول فى الحديقة عن طاقم العمل القديم فأخبرنى بأنهم تركوا المكان منذ ثلاثة شهور .
جلسنا على استراحة محاطة بالريحان وفى الوسط شجرة ليمون . وبدأت أقرأ لها الديوان الذى طلبته ، وضعت رأسها على كتفى، ونظرت فى الكتاب ، وأنا وقتها اكتفيت من متاع الدنيا ، وملئت إلى آخرى سعادة وحبًا ...
ووصلت سريعا إلى الكلمات التى قلبت كيانها : « بالرغم ممن حاصروا عينيك ... يا حبيبتى وأحرقوا الخضرة والأشجار بالرغم ممن حاصروا نوار أقول : لا غالب إلا الورد ... يا حبيبتى « اختنقت ، وراحت تبكى وتشهق وتتعلق بذراعى أكثر .سامحينى... فسوف أبكى معك أيضاً !!لن أستطيع أن أعانقك قبل أن أبكى !!

أبكى لأن من أحرقوا الأزهار يخرجون واحدًا بعد الآخر ، يلوحون بأيديهم إلى جرحنا ليشتعل أكثر ...

أبكى لأنهم عاقبونا على حريتنا ، لأنهم داسوا على أرزاقنا ورقابنا ، وقطعوا ألسنتنا ، وضربونا بالفتنة حتى أصبح الكثير منا يترحمون على أيام الجلاد ...

أبكى يا حبيبتى بدلاً من زرقة عينيك حتى لا يختفى لون البحر وأنت تبكين وردة جميلة كانت تشبهكِ ...

أبكى لأننى لا أستطيع البكاء إلا أمامكِ ...

أبكى يا جميلتى حتى تكون دموعنا لعنة عليهم ...

أبكى يا صادقتى لأخبر الكاذبين الذين يترقبون فتنة ترجعهم إلى الكرسى الملعون بأن طريق العودة لن يمر من على رقابنا .

التفت إليها وأنا أبكى ، وأمسح دموعها ، وأقول : من قالك لك اصطحبى مرشدًا يعلم تفاصيل البلد جيدا ؟!

قالت وهى تعانقنى : قلبى الموجوع يا سيدى ...

_ لن يفيدك الإنكار ... اعترفى بأن وسامتى التى لا تقاوم هى التى حملتك على فعل ذلك

ابتسمت رغم عنها وكانت لا تزال متعلقة برقبتى .

قلت : وأنا الذى كنت أنوى إهداءك هذين الكتابين !

_ طبعا سيحدث ... هل رجعت فى قرارك ؟!

_ نعم . إلا إذًا قطعتى وعدًا بأن لا تبكي ...

_ لك هذا . ووضعت الكتابين فى حقيبتها ،

كانت تعد لى مفاجأة : ثلاثة كتب من أعمال محمود درويش

قالت : حتى لا تمن على فى المستقبل ؛ سأهديك أنا أيضاً

_ شكراً جزيلا . هل اشتريتيهم بالأمس ؟

قالت متهكمة : ليس معنى أن الكتب فى حالة جميلة أنى اشتريتهم حديثا ... بل دليل على أننى منظمة ومرتبة ، وأخرجت لسانها مثلما يفعل الاطفال !

أمسكت برأسها أسحبها نحوصدرى وأنا أبتسم ، وأقول :ومنذ متى تقرأين لمحمود درويش ؟

_ من بعد الثورة

قلت : لأن محمود درويش يعرف كيف يصف حالة الانفصام التى نعيشها جيدًا ؟

_ نعم ! هل تقرأ له ؟

_ قرأت له « خطب الديكتاتور الموزونة «

_ حقًا ... لقد قرأت هذا العمل مرارًا ، وأحببته كثيراً ، جعلنى أتوه وسط الأشياء التى أعرفها وأبحث لها عن مسمى ، وفى النهاية خرجت بيقين أكبر لما كان فى داخلى ولكننى لم أخرج بأى مسمى ...

قلت : هذا ما يفعله محمود درويش بالضبط .

وضعت الكتب على الاستراحة وقلت لها : هيا لتشاهدى الحديقة كاملة ...

أخرجت من حقيبتها منديلا ، وكحلا ، ومرآة وأخذت تصلح من هيأتها بعد الدموع ...

قلت لها وأنا أضع يدى على شجرة الليمون : يحزننى أننا ما

عدنا نذكر الزيتون والليمون
قالت : كثر الجراح وتغيرت معه المعايير .. ماذا سنذكر ؟! وماذا سننسى ؟! دعنا من ذلك يا عمر بالله عليك ...
هيا لنرى الحديقة يا صديقى ، ما زالت النزهة طويلة ؟
_ بالتاكيد . سوف نذهب لأماكن عدة
حملت حقيبتها والكتب وبدأت تحكى مرة ثانية ... قالت : توفيت أمى بعد أخى بشهور
كانت تعانى من ارتفاع فى ضغط الدم ، ولم تتحمل شهورا من البكاء والانكسار والقهر ...
وقتها لم أعرف ماذا أقول لتلك الفراشة المطاردة ، وهل يليق كلام بهذا المقام ؟! ننتهى من ألم فنخرج لآخر ! إن الوطن قد أحاطنا وجعا منه ووجعا عليه ...
أكملت كلامها رأفة بى وبكلامى الذى وقف عاجزًا ، قالت : تزوج أبى بعدها بثلاثة شهور ؛ كان يريد امرأة ترعى شؤونه وذلك لانشغالى أنا وأختى بدراستنا
_ فى أى مرحلة تدرس اختك ؟
فى الفرقة الأخيرة بكلية الهندسة قسم الاتصالات اسمها حسناء، وهى كذلك جميلة جداً ، تشبه أمى حد التطابق، خمرية بعيون ز يتية
تعلم ... هى التى ساعدتنى على مواصلة الحياة بعد المصائب التى حلت بنا فقد كانت أقوى منى بكثير
_ لماذا لم تأت إلى حفل الخطوبة ؟

_ بالأمس كانت فى لقاء لتحديد مشروع التخرج ، واليوم فى الإسكندرية لحضور مؤتمر علمى إن الدراسة أهم شىء بالنسبة إليها. كانت الساعة وقتها وصلت إلى الثانية عشرة ظهرًا

قلت : حان وقت الإفطار يا سيدتى ...

_ حسنا أيها المرشد السياحى الكريم هل شعرت بأننى جوعانة؟

_ نعم ، ولذلك سنقدم لك أكلة بحرية رائعة ...

طلبت من الطاهى أن يعد الأسماك بطريقة اعتدت عليها وأمام ابتسامته قال : هل تعمل طاهيا ؟!

قلت : لا . بل مدينتكم الجميلة هى التى تقدم ألف طريقة جميلة .

_ ألست من الإسماعيلية ؟

_ نعم . فقط أتيت لأتناول وجبة من عندكم

_ أهلا وسهلا بك ، إن شاء الله يعجبك طعامنا

طلبت منه أن يغلف الطعام ، وكان على أن أنتظر نصف ساعة. كانت متعجبة من اهتمامى الدائم على معاملة الناس بطريقة ودودة وكأننى أعرفهم جيدا ...

قلت لها : الود يزرع الخير فى قلبى أولا وفى القلب الناس تجاهى ثانيًا ، أنا أبذل للناس ودى دون أن أنتظر ردًا وبذلك لن تصيبنى خيباتهم أبدًا ...

انتهى الطاهى من إعداد الطعام قبل موعده

قال : أتمنى أن ينال طعامنا إعجابك ، ونراك مرة ثانية .

نظرت إليها كأننى أؤكد لها على كلامى ، قلت له شكراً جزيلا.

قالت : إلى أين سيأخذنى الرجل الوسيم ؟
قلت : إلى الكورنيش ... سنتناول طعامنا فى مركب نيلى
_ الله ! لم أجرب ذلك من قبل ، هيا بنا ...
ركبنا سيارة أجرة إلى الكورنيش ،
كانت المدينة نظيفة وجميلة كما تركتها منذ عامين ، وصلنا سريعا. كانت المراكب لا تعمل فى ذلك الوقت من اليوم فعملها فى الغالب يبدأ عند العصر وينتهى عند الفجر .
نزلنا إلى مركب كان به طفل لا يتعدى عمره العشرة أعوام
قلت له : ألا يعمل أحد معك ؟
قال : أبى يعمل معى ، ولكنه يأتى عند العصر ،
يمكننى اصطحابكم ... تفضلوا
كان المركب نظيفًا جداً ، ومرتبًا ، ومزينًا بطريقة تأخذ العقل ، والقبطان الصغير كان أجمل من كل الزينة ...
نزل إلى حجرة فى قاع المركب وخرج وهو يسرق دهشتنا كان يرتدى زى التنورة كأنه ملك هبط من السماء؛ قامت إليه مهرولة تحتضنه وتقبله وتقول : طفلى الجميل ! كم عمرك يا بطلى ؟ قال: تسعة أعوام .نظرت إلى وعيناها تلمعان فرحًا ...
قالت : هل تعرف الرقص يا صغيرى ؟
_ نعم . أرقص على إيقاع السمسمية ،
قام بتشغيل السمسمية ، وبدأ فى الرقص ؛ وبدأت هى فى الجنون، وأنا كنت أنتظر تطاير شعره الجميل كانت حركاته السريعة وشعره المتطاير مع الهواء يشعلان جنونها ؛ فتراقصه

أحيانًا وتصفق له أحيانًا وتعانقه أحيانًا .
انتهى الفنان من رقصته التى كنا نتمنى أن تستمر . قلت له : تعالى لتأكل معنا
_ شكراً . أكلت قبل ساعة
قامت بسحبه من ذراعه وهى تقول : إن لم تأكل معنا نغادر تركنا المقاعد التى على جوانب المركب ، وفرشنا سجادة وجلسنا نأكل. كانت سعيدة جداً كأننى جمعت لها الدنيا ، كانت تطعمنى وتطعمه وتأكل بين كل فترة وفترة كانت هى الدنيا فى أبهى زينة، والجنة فى أصدق نعيم ، كنت سعيد معها وبها ولها أكلنا ، وقام الغلام الصغير الذى لم ينس عمله كى يصنع الشاى .
قلت لها : هل بإمكان معاهد السياحة والفنادق تخريج أناس بنفس كفاءة هذا البطل ؟
قالت : الجميل أيضاً أن أباه يثق به لدرجة أن يترك له المركب فى سنه الصغير ، ويعتمد عليه فى التحرك به وسط المياه ، وتقديم الضيافة والرقصات إن الرجل العظيم الذى رباه هكذا يجب أن ينال الاحترام والتقدير ، ويجب أن يكون قدوة ...
قلت لها : ما رأيناه من هذا البطل الصغير يوضح لنا بعد المسافة بين دعم الآباء ماديًا وبين دعمهم المعنوى ، فالمأساة أنهم يدعموننا ماديًا ، ويقتلوننا معنويا ...
جاء البطل الصغير حاملا الشاى بطريقة محترفة ؛ كان يضع يدًا تحت الشاى والأخرى وراء ظهره. وضع الشاى على منضدة صغيرة وعاد ليجلس فى الركن الآخر ...

تناولنا الشاى وكانت الساعة تقترب من الرابعة عصرًا
قلت لها : يجب أن نذهب قبل أن تغلق الشواطئ
قالت : أترك لى حساب النزهة هذه المرة لم أعارضها . أغدقت عليه، وفرح كثيراً حتى رقص !!
قالت ونحن نخرج إلى الطريق : لا بد أن نأتى ثانية .
ركبنا إلى شاطئ اعتدت أن أزوره لأنه يحتفظ بقليل من الخصوصية مقارنة بالشواطئ الأخرى التى تضج بالزحام . فى الطريق قلت لها: ذكرتنى حسناء بكلام أستاذ لى فى كلية العلوم كان يقول لنا: المؤامرة الكبرى أن تتركوا أنفسكم فريسة للضجر ، إياكم أن تنال هذه الأيام الصعبة من عزيمتكم فتفقدوا الطريق ، بالنسبة لى لقد حققت الكثير مما أطمح إليه ، وكل مشكلتى أننى أعامل أولادى بطريقة عنيفة فى هذه الأيام بسبب العبث الذى يطاردنى فى الشارع والجامعة ونشرات الأخبار وكل مكان ولكننى سرعان ما أصالحهم وأخفف عنهم ، وإذا ضاق الحال بى أكثر تركت البلد وسافرت إلى مكان يقدر احتياج المواطن إلى جوصحى يخلومن الضجر ، أما أنتم فلا يزال الطريق أمامكم طويلاً يحتاج إلى الصبر .
كأن حسناء تريد فعل ذلك ؟
_ نعم . إنها تفكر فى السفر كثيراً ... بل إننى أشعر بأنها تريد السفر مكافأة لها على صبرها ، وتحملها لفراق أمى وأخى ، ومواصلة دراستها رغم كل هذا الألم ، وحفاظها على مركز متقدم بين زملائها رغم كل هذا الخراب ...

هـى مشـغولة جـداً بدراسـتها كأنهـا تسـابق الزمـن ... أخـاف جـداً مـن فراقهـا يـا عمـر ، لـن أسـتطيع تحمـل فراقهـا وفى الوقـت نفسـه لـن أقبـل أن أقـف أمـام رغبتهـا بعـد كل هـذا الدمـار ؛ فأنـا أتمنـى أن تجـد شـيئاً يسـعدها ...

قلـت لهـا : إن الوطـن نفسـه يخجـل أن يطلـب منـا البقـاء ،لكـن إن أنصتنـا جيـدًا لشـكوى الوطـن سـنعرف أنـه مثلنـا سـنعرف أنـه أصبـح مسـلوب الـرأى والحقـوق ألا يعـد ذلـك سـببًا لبقائنـا بجـوار وجعـه ؟ قالـت : لقـد ضاعـت حقوقنـا ألـف مـرة فلـم نعـد نطلبهـا ؛ فهـل يمكننـا أن نعـرف حقـوق الوطـن وأوجاعـه ؟! يكفـى أننـا لم ننافقـه ، ولم نظلمـه ، ولم نتاجـر بقضايـاه .

دخلنـا إلى الشـاطئ، كانـت الشـمس تميـل إلى الغـروب فلـم نحتـج إلى مظلمـة سـحبت كرسـيين وجلسـنا بجـوار البحـر ، قالـت وقـد أوشـكت الأمطـار أن تهطـل مـن عينيهـا : لا تتركنـى يـا عمـر! لم أتوقـع أن تقـول ذلـك ؛ وإنمـا البحـر يفعـل أى شيء قبضـت عـلى يدهـا، وأنـا أنظـر إلى البحـر ، ولم أتكلـم وبعـد فـترة مـن صمتنـا قلـت : العظيـم فى البحـر أنـه يـأتى فى الوقـت الـذى تفشـل فيـه كل الأدويـة أن تعالجنـا ؛ فيداوينـا بالتهكـم كـما تعالـج الكهربـاء حـالات الـصرع . إن البحـر يسـخر دومـاً مـن فراقنـا ووجعنـا لقـد رأى الكثـير مـما يجعلـه لا يلتفـت إلى ضجرنـا ،

أخـذ الهاربـين مـن الخـوف إلى أمـن اللـه ، وأخـذ الهاربـين مـن الفقـر إلى غنـى اللـه ، ثـم بعـث إلينـا برسـالة عـلى هيئـة طفـل تقـول : ليـت المتصارعـين عـلى الزيـف يعلمـون .

جلسنا حتى الغروب . قلت لها : هل ستعودين معى ؟
قالـت : لم يكـن لدينـا وقـت للسـمر ، أشـتاق إلى دفء العائلة كثـيرًا ؛ سـأقضى الليـل هنـا وأعـود غـدًا
قلـت لهـا : سـيكون الأسـبوع القـادم إجـازة للعيـد ، هـل أراكِ فى العيـد؟ قالـت : بـكل تأكيـد
سأهاتفك إذًا خرجت
أوصلتهـا إلى البيـت عمتهـا ، وذهبـت لأسـلم عـلى صديقـى ورجعـت.
فى الطريـق كان المذيـاع يحمـل إلينـا رائحـة العيـد كنـت أنتظـر العيـد كعاشـق ، وأقـول كعـربى :كل عـام ومحصـول الشـوك يزدهـر
كل عام وأوطاننا تغتالنا بذنب حبنا وتفتخر ...
كل عام والعروبة فى الشام والعراق تنتحر ...
كل عام ونحن ننسى الزيتون ؛ فسقف أحلامنا ينحدر ...
قضـت العيـد فى غرفتهـا بـين أبحاثهـا ، والكتـب فقـد كانـت إجـازة العيـد فرصـة لإنجـاز أعمالهـا المتأخـرة وأنـا تذكـرت ألم ظهـرى ؛ فلـم أخـرج مـن البيـت .
لم يهاتفنـى أحـد ، ولم يعايـدنى أحـد ، ولم يـزرنى فى أحلامـى سـواها .
كانـت غجريـة فى تلـك الليلـة ، كانـت ثائـرة وشـهية ، وكانـت تريـد منـى أن أصطحبهـا فى رحلـة أقررهـا أنـا ، أخذتهـا وذهبـت : رددنـا خلـف السـياب عراقًـا عراقًـا، أهدينـا نـزار قبـانى فـلا مـن شـجرة دمشـقية تعيـش تحـت الهـدم، كتبنـا عـلى قـبر محمـود درويـش (فلسـطينية كانـت ولم تـزل) وحملتنـا جسـور قسـنطينة رسـالة إلى أحـلام مسـتغانمى تقـول :« إننـا لم نتحـدث بعـد بـكل شيء ... تعـالى

مجـددًا) عانقتهـا طويـلاً ، وأسـتيقظت متقبـلا كل خسـاراتى...
ومـن قـال بـأن الجنـون حكـر عـلى الحـب الأول ،ومـن قـال بـأن النسـاء لا يلتقطننـا مـن عـلى طريـق المـوت ...
غبـى مثـل مـن قـال بـأن الحـب الأول ينـسى وأنـه خرافـة ،ظـالم مثـل مـن يتهـم القلـوب المهيـأة للعشـق ليـل نهـار بالخيانـة ،مسـكين مثـل مـن يحـاول أن يفهـم : كيـف يـضرب الحـب ؟ وكيـف يكـون أفضـل الفرسـان فى الكـر والفـر ؟ وكيـف يُنسـينا عقلنـا ؟ . كنـت فى تلـك الفـترة أعيـش فى سـلام نفـسى متصالحًـا مـع كل شىء ، مـع الخيبـات، ومـع الوجـع ، ومـع ذكـرى حبيبتـى. فى المعمـل مجـددًا ...
لكـن لم نعـد نعـرف بيننـا حـدودًا لنقـف عندهـا أونشـغل بالنـا بهـا قـد اسـتدعيت فى تلـك الفـترة كامـل تركيـزى واهتمـت بدراسـتى وعـاد عقـلى للعمـل بعـد ثبـات طويـل ، وبقيـت عـادتى فى كـونى لا أحـب المشـاركة فى أسـئلة الفصـل فكانـت ترفـع عنـى ذلـك الحـرج . هممـت للخـروج بعدمـا انتهـى الـدرس نـادت عـلى كى أبقـى دخلـتْ إلى الغرفـة المفتوحـة فى المعمـل ، وخرجـت المـرأة التـى لا تتوقـف عـن سـحبى إلى الجنـون : حملـت إلى لوحًـا مـن الخشـب العتيـق وضعتـه عـلى الطاولـة ، كان مكتوبًـا عليـه ومنحوتًـا « الشـتاء « قالـت : صنعتـه فى أيـام كانـت تسـبق الشـتاء عندمـا جـاء رجـل لخطبتـى بعـد وفـاة أمـى بشـهور ؛ فحفـرت الشـتاء عـلى لـوح الخشـب هـذا كرشـوة ، واخـترت الشـتاء ...
عمر ... يمكننى ان أهديه لك ؟
قبلـت هديتهـا ، وكنـت أود أن أسـألها : ألا تخافـين أن يغضـب

الشـتاء؟! ولكننـى لم أفعـل .
قالت : سيكون الشتاء معك أجمل .
قلت : نعم . فالشتاء صديقى ...
قالت : لكنك لم تخبرنى ، هل أنا نحاتة جيدة ؟
قلـت : أى جـواب عـلى هـذا الجـمال دون عنـاق هوعبـث ؛ لذلـك سـأخرج حـالا قبـل ان أتسـبب فى فصـلى وفصلـك ..
قالـت لى وأنـا أخـرج : سـأكون فى نقابـة المهندسـين عنـد السـاعة الخامسـة إذًا أردت أن تـأتى
_ أراك هناك .
رجعـت إلى البيـت وأنـا أحمـل كنـوز الدنيـا عـلى هيئـة كلمـة مكتوبة باللـون الأسـود ومنحوتـة بلـون الثلج ...
احتفظـت بالشـتاء المزخـرف بجـوار هداياهـا وورقـة الأحـلام ،أخـذت حمامًـا ، وارتديـت القميـص الأزرق
عنـد البـاب أوقفتنـى أمـى : إلى أيـن تذهـب ؟ لقـد عـدت لتـوك أنـت لم تـأكل شـيئاً ؟! وبـين سـيل الأسـئلة التـى كانـت تعلـم بأنهـا لـن تحصـل عـلى إجابـة لهـن قالـت : اللـون جميـل عليـك لا تحـصر نفسـك مجـددًا فى الأبيـض والأسـود ، كـما أثنـت عـلى العطـر الفرنسى الـذى ظـل سـجينًا فى دولابى لمـدة عامـين . قبلـت يدهـا وخرجـت ... لم أشـعر بأهميـة انتـمائى لنقابـة المهندسـين إلا بعدمـا رأيتهـا جالسـة فيهـا ، مشـغولة بأوراقهـا وجهـاز الحاسـوب .
هل تسمح سيدتى الجميلة ؟
_ عمر ... قالت وهى تبتسم : على الرحب والسعة

كانت ترتدى نفس الفستان الذى كانت ترتديه فى الأكاديمية
_ لم تذهبى إلى البيت ؟
قالت : أريد إنجاز بعض الأعمال
أريد أن أنتهى من رسالتى قبل بداية الفصل الدراسى الثانى
قلت : ويكون لدينا محاضرة بهذا الجمال !!
إن الإدارة ستخاطر كثيراً بمستقبل الطلاب إذا اتخذوا قرارًا بتعينك محضارة ؛ فمن سينتبه إلى المادة العلمية وأمامه هاتان العينان .
ضحكت ولفت شفتيها مثل الأطفال ،
وقالت : تقول ذلك بدلاً من تشجيعى !
_ يا حبيبتى ... ستكونين أفضل محاضرة أراها فى حياتى كما أننى لن اضيع فرصة مشاهدة ارتباكك فى أول محاضرة .
تناولنا وجبة خفيفة كانت خلالها تتابع تقريرًا على حاسوبها ، وأنا أنظر إليها ولم أتكلم
بعد الطعام قالت : آسفة يا عمر ...
فقط ربع ساعة وأكون معك
_ لا عليك يا عبير
تناولت قهوتى وأنا أنظر إلى النيل بعد أن التفت إليه بالكرسى ، وهى كانت تعمل بجدية فى أوراقها ...
كانت طريقتها السريعة المتوترة تشبهنى كثيراً .
قالت وهى تنتهى من عملها : إذًا أصبح عمر محاضرًا فسوف يسبب مشاكل أكثر من التى أسببها أنا ...
ضحكت ، وقلت لها : ولن يبالى سوى بمليكته ! وجاءت أمطار

الخريف ، وأمطاره تعيد الأنوثة لأوراق الشجر الآيلة للسقوط ، وتسقى حبات قمح تحت الأرض تنتظر النور ...
لملمت الأوراق ، وأدخلت الحاسوب فى حقيبته ووقفنا ننظر إلى قطرات المياه وهى تصطدم بالنيل ،
قالت : كنت معى فى المعمل ، والحدائق ، والنيل والبحر ، والأمطار؛ ماذا تبقى ؟
قلت : ونسيتى الذكريات ، والبكاء ، والعناق ، والضحك وقبلتنا ؟! إذًا كنتُ معكِ فى الأشياء ، وكنتِ بالنسبة لى كل الأشياء ... وقتها شعرت بذلك حقيقة ، ولكن أخفيت ذلك بابتسامة ، وهى أيضاً تآمرت معى وضحكت ...
فى تلك الفترة كنت لا أبالِ بشىء سواها ؛ لذلك التفت إليها وأنا أقول : صديقتى ...
تلك الذاكرة التى امتلأت بالسواد لا أستطيع محوها ، أكتبى فوقها بالأبيض .
كانت ذكية جداً ؛ لذلك قالت : لا تخف يا عمر بعد ذلك سأعد الذاكرة بين الأشياء التى تواجدنا فيها معًا ... أقصد بأننى سأعد الذاكرة ضمن أشيائنا ...
- قالت بعد سلسلة من التنهيدات : تعرف يا عمر أن المرأة الجميلة الواقفة أمامك لم تجرب الحب إلا معك ،رغم أننى قضيت عمرى مطاردة من الحب ؛ فقد كنت البنت الأجمل فى المدرسة والشارع والعائلة ، وكان الأولاد يتسابقون إلى قلبى ولا أبالى ، وبعد أن أصبحت عروسة جميلة كما يقولون - قالت ذلك

وهـى تنظـر إلى النيـل وتفـرد أصابعهـا وتضحـك سـخرية -كان كل مـن يـرانى يريـد أن يرتبـط بى ؛ إمـا يحدثنـى فـلا أهتـم أويتقـدم لخطبتـى ولا أقبـل. الدنيـا أصبحـت سـوداء فى وجهـى بعـد وفـاة أخـى وأمـى وحـسرة أمـى إرث كبـير مـن الهـم يـا عمـر ، ومـن يتحملـه ؟! وبـين كل ذلـك أنـا أقـاوم، وأصـبر ، لكـن الحديـث عـن الارتبـاط وسـنة الحيـاة هـو أمـر صعـب عـلى لا أسـتطيع الدخـول إليـه ولا الهـروب منـه قالـت وهـى تدخـل فى نوبـة مـن الضحـك : إن آخـر الأشـخاص الذيـن أرادوا الارتبـاط بى مديـر ابـن عمتـى إنـه فى الخمسـين مـن عمـرة

_ كيف عرفك ؟

رآنى فى حفلـة الخطوبـة . إنـه خليجـى جـاء لينجـز بعـض الأعـمال فى مـصر وكان لا بـد أن يدعـوه ابـن عمتـى لمناسـبة كتلـك . قالـت وهـى تضحـك مجـددًا :هاتفنـى ابـن عمتـى بعـد الخطوبـة وعـرض عـلى الأمـر

وأشـارت بإصبعهـا وهـى تقـول : لقـد أخـذ منـى قائمـة عريضـة مـن السـب والسـخرية .

كنـت أود أن أصرخ فيهـا : كيـف تحـكى لى وكأننـى صديـق فقـط ، وكيـف تهملينـى ببسـاطة هكـذا ؟!

ولكننى صمت ...

الفصل الرابع

جاءت مع الخريف ... رحلت مع الشتاء

فى منتصف الطريق نضيع ...
فى منتصف الحب تقتلنا الأسئلة ، ويغتالنا الواقع ...
فى منتصف الصفحة تزيغ أعيننا ؛ فنسرح بين البياض
وبين البياض ...
فى منتصف الرواية نتوه فى ترتيب الأوجاع :
نرتبها طبقا للإحساس ؟
نرتبها طبقا للأحداث ؟
أم من أسفل الخيبات إلى أعلاها ؟!!
بعد شهر من عدم اللقاء سوى فى المعمل ،كانت خلاله تصب كامل اهتمامها على رسالتها ، وأنا كنت منتشيًا بالسلام المحفوف بالمخاطر ...
كنا خلال تلك المدة نتحدث عبر الهاتف ، أو نتحدث لخمس دقائق بعد انتهاء وقت المعمل، هاتفتنى عند الثامنة مساء ، وكأنها فكرت ألف مرة قبل أن تهاتفنى : عمر ... أريد أن أراك !
جاء صوتها مخنوقا ومترددا وخجلانا
_ خيرًا يا عبير !
_ لن أتحدث عبر الهاتف ، سأكون فى النقابة بعد نصف ساعة
_ حسنًا سأكون هناك .
كان الشتاء على وشك القدوم ؛ وكان الجميع يرتدى ملابس الشتاء الثقيلة ، وأنا اكتفيت بالقميص الأسود وكأن الخريف يقضى آخر لياليه عندى ...
ذهبت إليها وكل الفروض والخيارات والتكهنات مفروشة أمامى ؛

كـما تكسـبك الخيبـات فراسـة !
وصلـت قبلهـا تناولـت قهـوتى مـع النيـل ، وهواجـسى ، وقلقـى ، والذكريـات
جاءت ... لقد قلقت عليك كثيراً ، ما الأمر يا عبير ؟
اسـتجمعت قوتهـا ، وبـدأت تحـكى ،قالـت : سـتكون خطوبتـى بعـد يومـين !
_ مـن ؟ كيـف ؟ متـى ؟ لمـاذا ؟ وكل علامـات الاسـتفهام تـدور فى رأسى وأنـا أتحـرك بظهـرى إلى الأمـام كأنـه يُكـسر مـن جديـد ، ولكـن بقيـت علامـات الاسـتفهام بـرأسى ونابـت عنهـم أحداقـى ...
قالت : لقد حدثتك عن مدير ابن عمتى
-هو؟!!!
_ نعم
لم أتكلم ولم أذكرها بطريقة استقبالها لعرضه فى البداية ...
قالـت : بعـد أن حدثنـى ابـن عمتـى ورفضـت ، عـاد وطلـب منـى أن أقابلـه كى يكـون الحكـم منطقيـا ...
رفضـت مقابلتـه ، ولكـن بعـد إلحـاح ابـن عمتـى ؛ وافقـت ...تقابلنـا منـذ أسـبوع عـلى العشـاء ، جـاء ابـن عمتـى معـه وبعـد ذلـك تركنـا فى المطعـم وخـرج .إنـه رجـل مهـذب جـداً ، ومثقـف أيضـاً ، وناجـح جـداً
ثـم أكملـت وهـى تجـبر لسـانها عـلى الـكلام : إلى جانـب أنـه رجـل أعـمال ناجـح يمتلـك مصنعـين هنـا ، وسلسـلة شركات فى بلـده وبلـدان أخـرى حـول العـالم ...

قلت : واقفت إذًا ؟ لماذا نتكلم ؟!

_ عمر ... إن قصتنا لا يمكن لها أن تكتمل ؛ إننا ...

قاطعتها : إننا فقط حاولنا أن نسرق فرحة أليس كذلك ؟ أليس ذلك ما تودين قوله ؟لا عليك يا عبير ... أعلم جيدًا منذ البداية أن تلك النهاية حتمية ، ولكننى ما كنت لأترك هذا الإحساس ... ما كنت لأترك شجرة الياسمين وكل الحنين يضربنى ، ولا أحتمى بها ،ما كنت لأترك فرصة للصدق بين بحار الكذب . أعلم جيدا يا عبير ... أعلم بأننى أحببتك كثيراً ولم أبال بالواقع ، وأعلم أيضاً بأنك أحببتنى ،أعلم أن مثل علاقتنا كان من الأفضل لها أن تبقى داخل مفاهيم الصداقة : أن تحكى وأن أحكى ، أن تضحكى وتبكى دون أن ننتظر شيئاً أكثر ... لكننى لم أستطع فعل ذلك ... أبدًا لا عليك يا عبير ... لا عليك يا عبير

_ عمر ... أنا أيضاً أحببتك ولكن ...

_ لا تقولى شيئاً

وبعد دقائق من الصمت قالت : أنا أيضاً كبيرة أنا فى الثامنة والعشرين من عمرى

قاطعتها مجددًا : ليس مهمًا يا عبير ، أرجوك لا تقولى كلامًا هكذا. وقتلتنى تلك الوردة الجميلة التى لا تزال فى مقتبل العمر وتبحث لنفسها عن مبرر وتصدق أكاذيب اختلقتها لتكون حجة لانضمامها إلى رجل يساوى عمره ضعف عمرها ... إلى أى منحدر تسير ؟!! وبحدس أستاذة ماهرة تعلم ما يدور بعقل طلابها قالت : إن طبيعة العلاقة ستساعدنى كى أعيش الحياة التى أريدها؛

إنه يأتى إلى مصر شهرين فى كل عام ؛ سيقضيهم عندى ويترك لى فرصة إكمال دراستى وأبحاثى والعمل فى المكان الذى أريده ، وفى الإجازة أذهب إليه . كما أنه سيدعمنى إذا أردت السفر إلى أوروبا للدراسة .

_ إنه متزوج ... أليس كذلك ؟

كنت أعرف الإجابة بالتأكيد ولكننى كنت أريد أن أرى عمق التضحيات والتخلى ...

قالت : سأكون الزوجة الرابعة ... لكن هذا لا يهم ،المهم أنه سيدعمنى فى ...

قاطعتها مجددًا : هذه حياتك ولا تحتاجين لمبررات .

يجب على أن أعود ...

_ عمر ... سأكون هنا ، سأظل هنا ، ولن تنتهى صداقتنا

_ صداقتنا !!! هذا أيضاً لا يهم

وقبل أن أخرج قالت : عمر ... سيكون الزفاف بعد شهر سأسافر لأن الزفاف سيكون فى قصره ...

_ كل هذا لا يهم يا عبير ، وخرجت من عندها أشعر بالعجز ...

كيف لا أستطيع ان أصرخ فيها كى تبقى ، بأنها لى بأن لى حقا عليها، وأنها عندى أجمل وكيف نسيت أن أخبرها بأن أختها لا تزال هنا صابرة ، ولكن كيف وأختها على أهبة السفر ؟!!

رجعت إلى النقابة بعد نصف ساعة من السير دون وجهة ، محملا بعلبة سجائر ، وكنت من قبل قد قاومت التدخين فى أحلك مشكلاتى. أشعلت سيجارة ، وطلبت فنجان قهوة وجلست أحدث

مقعدهـا، أقنعـه بأنهـا معـى سـتكون أجمـل ، وبأنهـا لـن تجـد مـن يحمـل إليهـا الحـب فى هـذا الزمـن الخـراب، لـن يـأتى نيلسـون مانديـلا إليهـا واضعًـا يـده عـلى جرحـه وجرحهـا ويأخذهـا إلى الحياة، وكيـف أخبرهـا بـأن صـوت كاظـم فى (بيـت الديـن) أعتـق ... يرسـم وجـع نـزار عـلى بلقيـس : يقـول (زيدينـى عشـقا) فـلا تـرد، يظـن بأنهـا مخـيرة فيهددهـا (إنى خيرتـك فاختـارى) ولا تـرد ،وعندمـا يـرى حطـام السـفارة ويعـرف السـبب ؛ يبـكى نـزار (إن قضاءنـا العـربى أن يغتالنـا عـرب) يكـون كاظـم خلفـه يغنـى (أدخلنـى حبـك سـيدتى مـدن الأحـزان) .

وكيف أخبرها بأشياء تعرفها جيدا ؟!

وكيـف أدعـى بأننـى ظلمـت ، ومـا بيننـا ليـس عقـدًا أرفعـه للقضـاء كى آخـذ حقـى ؛ ولكـن ميثاقنـا لا يعـرف قيمتـه سـوانا ...

أفقدتنـى تـوازنى حـد الهذيـان ؛ فرحـت أدخـن ، وأحـدث نفـسى بـكلام لا أفهمـه ، وأعذرهـا أحيانًـا ، وألعنهـا أحيانًـا وأكـره نفـسى أحيانًـا ، وأهدهـد نفـسى أحيانًـا .

الفصل الخامس

هناك فصول تنتحر فيها أوراق الصمت

لرثاء عاصفة الرحيل ...

وكـم تحديـت النـار ؛ فهزمتنـى فقدمـت لهـا القرابـين هدايـا حبيبـاتى، أوراقـى ، أقلامـى ، أصابعـى ، تبغًـا وبخـورًا ؛ فأبـت. وكيـف أنتـصر عـلى امـرأة أسـتدعيها كل مسـاء فـوق سـطح بيتـى لـكى تصنـع لى قهـوتى ، ثـم أتركهـا للهـواء يخمدهـا دون أن أغازلهـا ، وفى اليـوم التـالى أسـتدعيها ، فـلا ترفـض !! إنهـا سـيدة التهكـم ....

أيتها النار : كونى مثل الشتاء صديقتى ...

منتصـف ليـل الحـادى والعشريـن مـن كانـون الأول ، وجـاء الشـتاء يـوزع العنفـوان ...

استيقظت عند قدومه كما الفجر يوقظ المؤمنين .

فـوق سـطح بيتـى أصنـع قهـوتى تمامًـا كـما تقـول طريقةالتحضـير : اصنـع قهوتـك بنفسـك ، اضـف قطعـة سـكر أوقطعتـين أولا تضـع ، اضـف قهوتـك السـوداء بقـدر تحملـك ، ضعهـا عـلى النـار وأنـت تقلـب سريعًـا حتـى تتـوه القهـوة ، ولا تعلـم سـبب اندماجهـا بالمـاء حتـى إذا أخـذت القهـوة زينتهـا ، وظنـت الثـورة أنهاحققـت أهدافهـا، اضـف إليهـا قهـوة أخـرى تهـدأ مـن ثورتهـا ،وحـين تفيـق وتسـتعيد نشـاطها خذهـا إلى كـوب زجاجـى شـفاف لـترى السـواد فى أبهـى صـورة .

كانـت قهـوتى دومـاً بـدون سـكر كانـت صادقـة. شربـت قهـوتى ، وأنـا لا أذكـر مـن سـيدة المعمـل الجميلـة إلا الجـمال . وخرجـت مجـددًا إلى مفـترق طـرق ...

كانـت امتحانـات نصـف العـام عـلى الأبـواب ، وكان ألم ظهـرى يـزداد، وكنـت أرفـض صوتهـا القـادم عـبر الهاتـف رغـم احتياجـى .

تذكـرت صاحـب الحديقـة وقتهـا وكذبتـى ، وضحكـت ،وقبـل انطفـاء

النار حملت إليها الكتب ولوح الخشب؛ أصدرتْ دخانا كثيفا قبل أن تشتعل ، تركتها مشتعلة ، ونزلت إلى المذاكرة التى كانت حملا ثقيلا لا مفر منه .

لم أستطع المذاكرة فى تلك الليلة فقد زادت وحدتى ، وزاد الحنين إلى امرأتين تركونى شتاء ...

وكيف يكون الفراق لعينا لدرجة أنه يختار الشتاء موسما ؟! ولماذا يكون صوت إليسا على موعد مع جلدنا كل شتاء ؟!

فى الصباح خرجت من بيتى قاصدا الأكاديمية ورغمًا عنى تغيرت وجهتى إلى صاحب الحديقة الذى ما قطعت الإتصال به أبدًا ...

وبأنانية شديدة هاتفت سوار : صباح الخير سوار .

جاء صوتها نشيطا كعادتها فقد كانت شديدة الالتزام بمواعيدها، وحريصة على عدم ترك أى محاضرة .

_ صباح النور يا عمر ... كيف حالك ؟

_ بخير والحمد لله . أريدك أن تأتى معى إلى الإسماعيلية

_ الإسماعيلية ! لماذا ؟

_ أريد القيام بنزهة ، وأريدك أن تأتى معى

_ أتمنى ذلك أيضاً ، لكن لدى محاضرة بعد نصف ساعة وبعدها سأذهب لشراء بعض الأغراض

_ حسنا يا سوار . كيف حالك ؟

_ الحمد لله . كنت سأهاتفك لأخبرك بخطوبتى !

_ حقا ! سعيد جداً لأجلك يا صديقتى ، مبارك لكِ

_ سيكون الحفل فى إجازة نصف العام ، سوف أخبرك بالموعد

وسـوف تـأتى

_ بكل تأكيد ... بكل تأكيد

جـاء ذلـك الخـبر لأجنـى مـا زرعتـه حـين جعلتهـا صديقـة مشـتركة لنـا ؛ فعـلى الرغـم مـن كونهـا صديقـة ، وصديقـة فقـط إلا أن فراقهـا سـيكون إعـادة لفـراق صديقتهـا ...

لم أسـألها عـن صديقتهـا منـذ تزوجـت ، ولكـن فى ذلـك اليـوم كنـت أحتـاج إلى معرفـة أخبارهـا

قلت لها : كيف حال فيروز ؟ هل تهاتفينها ؟

_ طبعًا . إنها بخير ولكن الحمل يتعبها بعض الشيء

_ الحمل !!

_ نعم يا عمر وما الغريب ؟

_ لا شى يا سوار . وفقك الله فى حياتك القادمة . إلى اللقاء.

استسـلمت إلى جملـة الأخبـار التـى تسـاقطت عـلى قلبـى فجـأة ، وبعـد خمـس دقائـق هاتفـت صديقـى : صبـاح الخـير أيهـا الرجـل الطيـب

_ صباح النور يا عمر . اشتقت إليك كثيراً

_ شعرت بذلك ، ولهذا السبب أنا ضيفك اليوم

هل أنت فى الحديقة ؟

_ نعم . هل ستأتى معك عبير ؟

_ لا . سـأزورك بمفـردى . ركبـت مصادفـة نفـس السـيارة مـع نفـس السـائق ، ومقعدهـا فارغًـا . ذهبـت ببـالى إلى الكـرسى الـذى بجـوار السـائق ، وتركـت مقعدهـا فارغًـا تجلـس فيـه أحيانـا ، وأحيانـا تـأتى فـيروز ...

وأنـا أنتـشى أحيانًـا كـونى عشـقتهما ، وأنكـسر أحيانـا لأن القصـة انتهـت. كانـت فـيروز صاحبـة الأعـين السـوداء امـرأة شرسـة وغجريـة مـن الخـارج ومـن الداخـل لا تجـف ينابيـع أنوثتهـا ، وعبـير كانـت عبـيرًا كانـت الصـدق الغائـب عنـا ؛ فكيـف أجمـع بينهـما فى الذاكـرة دون ان أشـعر بالفخـر ودن أن أبـكى ...

كانـت فـيروز امـرأة شـعبية ، وكانـت عبـير امـرأة مثقفـة ؛ فكيـف أهـرب ؟! وإلى أيـن ؟!

كانـت فـيروز تحتفـل حتـى بالمـرة المليـون التـى تقـول لى فيهـا أحبـك، وكانـت عبـير تبـكى فى صـدرى فرحًـا بالحـب الـذى عـرف الطريـق إليهـا بعـد ثمانيـة وعشريـن عامـاً فـأى امـرأة تسـتطيع أن تحجـز مكانـا بينهـما ؟!

كانـت فـيروز تشـاركنى الشـوارع ، وكانـت عبـير تشـاركنى الحدائـق ؛ فكيـف لا يسـير الحنـين معـى ؟!

وصلـت إلى الحديقـة كان العـمال يجمعـون البرتقـال ، وكان صديقـى واقفًـا فى أول الحديقـة وحـده يدخـن سـيجارة ...

أهلا ولدى الغالى ، حمدًا لله على سلامتك

_ سلمك الله . كيف حالك ؟ وكيف حال زوجتك وبناتك ؟

_ جميعهم بخير والحمد لله _ أين زوجتك ؟

_ ليست هنا ؛ ألا ترانى أدخن دون خوف ...

لقـد ذهبـت لقضـاء مناسـك العمـرة وسـوف تجلـس مـع ابنتنـا شـهرًا قبـل أن تعـود

_ تقبل الله منها ، وأعادها سالمة

_ أنت قل لى : أين عبير ؟

_ أصبح الكوب كله فارغًا يا صديقى . فى البداية أريدك أن تسامحنى على كذبتى ؛ إن عبير ليست ابنة عمى إنها جارتى فقط، ولكننى كنت أحبها حقا وأريد أن أتزوجها

حقا

لا أعلم لماذا كذبت ؟ ولماذا أردت أن أصارحه إن كنت على استعداد أن أكذب ثانية ؟

قال : كنت أعلم بأنها ليست ابنة عمك ...

_ حقا ! ولماذا لم تقل لى ؟!

_ لأن علاقة الحب تجب ما قبلها ؛ ماذا يفيد إن كانت ابنة عمك أو لا ؟ والحب أكبر علاقة فبأى علاقة بعده أبالى ؟ وطالما أنها حبيبتك عن أى شىء سأبحث ؟

أخرجت علبة السجائر أمام ضحكته وقلت له : طالما أن الكوب كله أصبح فارغًا ؛ دعنا نتحدث دون حرج ، وأشعلت سيجارة ...

قال : نتحدث ، ولكن أولا أريدك أن تنتهى من التدخين سريعًا .

أومأت له بالإيجاب ، وقال لى : تحدث

قلت : ما الأصعب ؟ أن تكون حبيبتك ملكا لرجل غيرك يحتضنها ويقبلها ويخلع عنها ملابسها ، أوأن تحمل فى بطنها طفلا من رجل غيرك ؟

قال وهويدخل فى نوبة من الضحك : كما يقولون (لا يضر الشاة سلخها بعد ذبحها)

وشاركته الضحك كأننى مجنون ، وأضرب على كتفه

وأقول : نعم نعم نعم أنت محق ...
ذهب ليتابع العمل ، وأنا جلست أشرب الشاى ، وأحرق الكثير من التبغ . فى طريق العودة أعطيت السائق كل السجائر الباقية معى وعزمت ألا أشتريها مجددًا خوفا من تطرفى ...
وصلت إلى البيت . جلست كى أذاكر ، ولكننى تذكرت النار التى كنت قد أشعلتها ؛ فصعدت إلى سطح بيتى. أكلت النار كل شىء ولم يتبقى سوى قصاصتين من الورق
الأولى مكتوب فيها : «كم تبعد الأرض عنى ؟
وكم يبعد الحب عنكِ؟»
والثانية مصلوب عليها :« ورائحة البخور تقول : ما زلنا هنا حتى لوانفصل الزمان عن المكان لعلنا لم نفترق أبدًا
استيقظت مبكرًا ، ذاكرت لساعتين . وجدت على هاتفى رسالة منها تقول : ستكون مناقشة رسالتى غدًا فى الجامعة عند التاسعة صباحا أتمنى حضورك .
بعثت برسالة لها : أتمنى توفيقك .. لن أحضر .
وأغلقت هاتفى ، وأخذت حمامًا ، وارتديت القميص الأسود وذهبت إلى الأكاديمية .
الساعة الواحدة ظهرا ، ومحاضرة الرياضيات تكاد أن تنتهى ... جاءت !!
دخلتْ إلى قاعة المحاضرات وسط ثناء المحاضر عليها ومباركته لها؛ جاءت لتسلم له كشف أعمال الفصل لدفعة أخرى . أعطت المحاضر الكشف ، وطلبت منه أن تكمل معنا المحاضرة ...

جلست بجوارى ، مجددًا كانت ترتدى فستانًا جميلا ، مجددًا كان عطرها فتاكًا ، لكنَّ شفتيها الجميلتين لم أعد أعرفهما فلقد تلونتا بلون النفط ...

نعم . فحرب النفط على داعش والحوثيين يمكنه أن يُوقف المشروعات ، أن يُسرح العمال ، أن يُدين البلاد ، لكنه لا ينهى قطف الأزهار الجميلة !!

لم يتوقف المحاضر الفخور بتلميذته النجيبة الحاصلة لتوها على درجة الدكتوراة ؛ قال : هذا السؤال يمكن حله بطريقة سوف تدرسونها لاحقا مع الدكتورة عبير ألا وهى (المعادلات التفاضلية) وأى مشكلة تقابلنا يمكننا أن نحولها إلى معادلة تفاضلية ونحلها ببساطة ...

نظرت إليها كأننى أقول : هل تنفع المعادلات التفاضلية فى حل مشكلتى ؟!

بعد انتهاء المحاضرة تسابق الطلاب لتهنئتها التفوا حولها ، وأنا خرجت إلى المطعم ...

كان اليوم الدراسى قد انتهى بالنسبة لى وفى العادة أعود إلى البيت مباشرة ، ولكننى انتظرت فى ذلك اليوم لعلها تقابلنى فتحدثنى !!

صعدت إلى المكتبة ، وأنا أحمل القهوة كان اسمها مكتوبًا فى سجل المترددين على المكتبة بقلم أهديتها إياه ، فعلمت بأنها تجلس فى الطابق الثانى من المكتبة ، المخصص لأعضاء هيئة التدريس ...

صعدت إليها بواسطة أمينة المكتبة الجميلة التى اعتدت أن أستعير منها وأعيرها كتبًا .

كانـت تجلـس بجـوار النافـذة عنـد آخـر طاولـة منشـغلة بإعـداد كشـف أعـمال الفصـل لمـادة الكيميـاء أحتـاج إلى فعـل أمـور اسـتثنائية للوصـول إليـك ...

_ عمر !!!

وقامـت تجـرى نحـوى ولا بديـل لهـا عـن العنـاق وكأنهـا تقـول احتضنى كى أشـعر بنجاحـى ، اجعـل مـا حققتـه اليـوم حجـة للعنـاق؛ فربمـا لا نجـد حجـة بعـد اليـوم ...

احتجـت إلى كثـير مـن الشـجاعة وأنـا أمسـك بيدهـا فى محاولةلإبعادهـا عـن صـدرى ، وأقـول : مبـارك لـك النجـاح يـا عبـير ، أنـتِ فى مكانـك الطبيعـى ، أدام اللـه تفوقـك

_ كان ينقصنى حضورك يا عمر ....

_ آسف . لم أستطع ، وتعثرت أصابعى بخاتم خطوبتها ...

_ تعـال لنجلـس . وبـدأت تحـكى كأنهـا لـن تحـكى مجـددًا : لقـد كان يومًـا سـعيدًا مـن الأيـام القليلـة ، وأجمـل مـا فيـه فرحـة أبى وأختـى كانـوا سـعداء جـداً يـا عمـر

- الحمـد للـه أننـى اسـتطعت أن أقـدم لهـم فرحـة والجميـل أيضـاً أننـى هزمـت تعـثرى فى المرحلـة الثانويـة حـين فشـلت فى الالتحـاق بكليـة الصيدلـة ...

ظلـت تحـكى عـن المناقشـة ، وعـن أبيهـا وأختهـا ، وحقـد أصدقائهـا، وأشـياء أخـرى لا تعنـى شـيئاً بالنسـبة لى كان عقـلى يـصرخ فيهـا :أنـت أنانيـة جـداً ... لمـاذا تحـكى كل هـذا ؟

ألا تعلمين بأننى لا أزال أجلس أمامك كعاشق ؟!!

وبعد انتهاء كل سبل هروبها ، عادت إلى قضيتها الرئيسة فاعتذرت لى مجددًا ، وقالت بأنها مضطرة لذلك مجددًا وأوصتنى بأن أخضع للجراحة مجددًا ...

قلت : عبير ... لا يهم ذلك ، وبعد ثوان من الصمت

قلت : أتمنى لك حياة سعيدة – ستكونين أجمل عروسة

قالت وهى تقبض على يدى : سأسافر غدًا يا عمر سيكون حفل الزفاف بعد عشرة أيام هناك فى قصره ، لكننى سأعود ...

سأعود مع بداية الفصل الدراسى الثانى .

طلبت منى أن أنتظرها حتى تسلم الكشفوفات وتعود ، كأنها تعلمنى آخر درس من دروس التهكم ، وأنا كنت أتعلم الدرس جيدًا ...

انتظرتها لأننى كنت شديد الخوف من غيابها ، وأخشى أن يتبدل كحل عينيها الذى رسمته يومًا بأوراق البرتقال ، أخشى أن يتغير قلبها ؛ وإن كان جسدها له ، أخشى أن تغيب طويلاً قبل أن تعود؛ فتخوننى ملامحها كما تخوننا ملامح الوطن .

سلمت الكشوفات وعادت ، فى الوقت الذى كنت أنزل فيه ساندا بيدى على القائم الحديدى ، وضعت يدها فوق يدى وهى تقول: إلى أين تذهب يا عمر لم نكمل حديثنا بعد !!

قلت : لا حديث ينتهى يا حبيبتى

أنت بدأت الحديث وأنا سأكمله : فقد تعلمت أن يبقى القلب قابلا للإحساس ؛ تعلمت أن يصنع القلب من جراحه حجرات سرية لحب عظيم سيأتى حتمًا ونامت على صدرى وأنا أقول : سأنطق

دومـاً باسـم الحـب ، سـأقول كانـت أمطـار شـتائك كريمـة ، وكان صيـف حبـك يكـوى ، وأسـقط خريـف حبـك كل أوراق اليبـاس، ولأزهـار حبـك يـا عبـير عبـيرًا جميـلا .

كانـت سـيارة بيضـاء فى انتظارهـا لتسـاعدها فى التنقـلات ، ولـكى تحملهـا إلى المطـار فى اليـوم التـالى ، وبعـد ذلـك إلى ربـع قـصر ...

تحركـت السـيارة وأنـا أتذكـر قولهـا يـوم دخلنـا المعمـل أول مـرة قالـت: سـتحل عليـك لعنتـى ؛ إن أحببتنـى

قلـت : إذًا سـأحتضنها ، وأصنـع لهـا ضفيرتـين وأشـترى لهـا فسـتانا أبيـض بزخـارف زرقـاء .

١٩ مايو ٢٠١٧

الثالثة عصرًا